# مَوْسُوعَةُ
# فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

# سُورَةُ الْفَتْحِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

# موسوعة فوائد القرآن الزكية

## سورة الفتح

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

# فوائد سورة الفتح

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ
صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟
إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا
﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ
دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾

ابتدأت سورة الفتح بقوله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ خطاب مُوجَّه للرسول صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبع له عليه الصلاة والسلام، وهو خطاب يحمل البشارة بالفتح الذي تتجاوز دلالته النصر إلى الدخول والحكم والسيطرة. لأن الفتح أبلغ في تجاوزه النصر إلى التمكن من الحكم والسيطرة. فالنصر قد يقتصر على كسب المعركة، والنكاية بالعدو، ودحره وهزيمته. كما أفاد قوله تعالى ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ تقرير القضاء والحكم من الله تعالى بما كان وبما سيكون قبل أن يكون، بأننا حكمنا لك أيها الرسول بالفتح. وهو يشمل يوم الحديبية، ويشمل فتح خيبر، وفتح مكة.

فهو يشمل يوم الحديبية، حيث قال به الأكثرون، ومنهم البراء بن عازب، والشعبي، والزهري، ومجاهد رحمهم الله تعالى. وقيل فتح مكة، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أن هذا الفتح هو فتح مكة، وبه قال السدي رحمه الله تعالى، وقيل: أنه فتح خيبر، قاله مجاهد والعوفي رحمهم الله تعالى[1] وقد فتح الله تعالى خيبر، وفتح الله تعالى مكة لرسوله صلى الله عليه وسلم، وأصبحت تحت حكم الإسلام. وقد نزلت سورة الفتح أثناء

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/١٥٩-١٦٠)

عودة الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين إلى المدينة من الحديبية، وما جرى فيها من الصلح، الذي هو صلح الحديبية. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلمت عليه. فقال لقد أُنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طَلَعَت عليه الشمس، ثم قرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[١] وعن مجمع بن جارية الأنصاري رضي الله عنه، وكان أحد القُرَّاء الذين قرأوا القرآن. قال شهدنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما انصرفنا عنها، إذا بالناس يهزون الأباعر، فقال بعض الناس لبعض: ما للناس؟ قالوا: أُوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فخرجنا مع الناس نُوجِف، فوجدنا النبي صلى الله عليه وسلم واقفاً على راحلته عند كُراع الْغَمِيم. فلما اجتمع عليه الناس، قرأ عليهم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فقال رجل: يا رسول الله! أفتح هو؟ قال: نعم. والذي نفسُ محمد بيده إنه لفتح، فقسمت خيبر على أهل الحديبية[٢] وتم إيراد ذلك في كتاب السيرة[٣] مما يفيد أن صلح الحديبية كان فتحاً، وهو مفتاح من الله تعالى لفتح خيبر، حيث تم تقسيم غنائمها على أهل الحديبية، ثم كان هذا الصلح الذي هو صلح الحديبية مفتاحاً لفتح مكة، حيث نقضت قريش العهد الذي اتفقت به مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتم فتح مكة. فجمعت دلالة الآية الكريمة الثلاث الأقوال.

وجاء البيان بصيغة الماضي ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ لإفادة الجزم بالتحقق من الدخول والسيطرة وانتقال الحكم لك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم. فهو قضاء وحكم مجزوم ومقطوع به من الله تبارك وتعالى. كما ورد البيان من الله سبحانه وتعالى بالتخصيص ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ لك أنت أيها الرسول، تعظيماً وتمجيداً لشأنه ومنزلته وعلو رتبته عند ربه، والمؤمنون أتباع له عليه الصلاة والسلام. وتقدم ضمير المتكلم ﴿إِنَّا﴾ على الفتح الذي هو الله سبحانه وتعالى جَلَّ شأنه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ فهو الذي تولى القضاء والحكم بالفتح، كما أفاد التعظيم والتفخيم لجلاله سبحان وتعالى. وأما صفة هذا الفتح فإنه ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فتحاً ونصراً ظاهراً، يتبين به معية الله تعالى لك وللمؤمنين، ويتبين به أنه آية من آيات الله تعالى، الدَّالة على أنك رسول الله، وأن هذا الدين هو دين الله تعالى، وأن كل من يعادي هذا الدين فهو مهزوم، ومنكسر، ومخذول. وهو بشارة للمؤمنين، وتهديد للكافرين.

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١٢١/٣) برقم (٤١٧٧)

(٢) أبو داود، سنن أبي داود (١٧٤/٣) برقم (٢٧٣٦)

(٣) خالد بن حامد الحازمي، الفوائد السنية من السيرة النبوية، ص (٤٠٣)

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بعظيم امتنانه عليه، فيقول تبارك وتعالى ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ ففتحنا لك هذا الفتح المبين كي يجتمع لك معه امتناننا عليك بالمغفرة لجميع ذنوبك، المتقدمة والمتأخرة، ويُكمل عليك تمام النعمة، ويهديك، ويثبتك على الهدى الذي جاءك من ربك سبحانه وتعالى إلى أن يقبضك ربك إليه تبارك وتعالى. وأورد القرطبي رحمه الله تعالى قول ابن الأنباري في معناها مع دلالة ما قبلها: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجمع الله لك مع الفتح المغفرة. فيجمع الله لك ما تقر به عينك في الدنيا والآخرة. وأضاف القرطبي رحمه الله تعالى: لم يجعل الفتح علة للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عَدَّد من الأمور الأربعة، وهي: المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز. كأنه قال سبحانه وتعالى: يَسَّرَنا لك فتح مكة، ونصرناك على عدوك، ليجمع لك عِزّ الدارين، وأعراض العاجل والآجل[١] وهذا تشريف عظيم للنبي صلى الله عليه وسلم. فأوضحت الآية الكريمة تعظيم الامتنان، بعظيم النعمة على الرسول صلى الله عليه وسلم في حاله السابق وحاله القادم في الدنيا والآخرة. مما يدل على مكانته ومنزلته الرفيعة صلى الله عليه وسلم عند ربه عَزَّ وجل. وليعرف غيره من العباد تلك المكانة العظيمة الجليلة للرسول صلى الله عليه وسلم. فمع عصمته صلى الله عليه وسلم عن الكبائر والصغائر، فإنه تأتي المبالغة في محو الذنوب فيما لو حصلت، كترك الأولى، أو السهو، أو النسيان الذي هو من الطبائع البشرية.

وقد أظهر هذا البيان الكريم تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بكمال المغفرة، وهي خصيصة عظيمة، تدل على رفعته ومنزلته ومكانته صلى الله عليه وسلم عند ربه جَلَّ جلاله ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ فبدأت الآية الكريمة بالمغفرة لما سبق، وما هو قادم مما قد يكون من الذنوب ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: والمعنى ﴿ مَا تَقَدَّمَ ﴾ في الجاهلية ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ما لم تعلمه[٢] قال الشوكاني رحمه الله تعالى: ويكون المراد بالذنب بعد الرسالة: ترك ما هو أولى، وسُمّي ذنباً في حقه لجلالة قدره، وإن لم يكن ذنباً في حق غيره[٣] وقد عامل الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في شأن المغفرة على أنه بشر، بالرغم من حرصه صلى الله عليه وسلم على ألا يقع في ذنب، لأنه مهما عمل من الطاعات فيشعر بالتقصير في حق الله تعالى. ليتبين للناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر، ومع

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/١٧٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/١٦١)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٥/٤٥)

حرصه ومعرفته لربه، ومعرفة الله تعالى به، فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومما يكون لو كان. فلو كانت لك ذنوب ماضية وقادمة لغفرناها لك لمنزلتك ومكانتك الرفيعة عندنا.

وقد أفاد ما بعده من البيان أنه عليه الصلاة والسلام لن يقع فيما يُغضب الله تعالى، بدليل ما بعده من توليه سبحانه وتعالى له عليه الصلاة والسلام بالنعمة والهداية إلى صراط الله المستقيم ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ وهذا ما يجب أن يفهمه الإنسان عن رسوله صلى الله عليه وسلم، بأنه منزه عن المعاصي والذنوب من الكبائر، أو في شيء متعلق بالرسالة. وقد كان صلى الله عليه وسلم حريص على الاستغفار بالرغم من مغفرة الله تعالى له، فقد ورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم (إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي على نحو ما أسمع)[١] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)[٢] وورد قوله صلى الله عليه وسلم (اللهم اغفر لي خطيئتي، وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني)[٣] فدل ذلك على أنه إن حدث منك ما يستوجب المغفرة فقد غفرت لك ما كان وما سيكون إن كان منك ما يستوجب المغفرة. والنبي معصوم صلى الله عليه وسلم، وسائر الأنبياء من الكبائر والصغائر. وهذا الاستغفار منه صلى الله عليه وسلم عبادة. وكذلك تعليم من الله تعالى بقدر منزلة نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم عند ربه سبحانه وتعالى. ومع كل ذلك يستغفر ويتوب بتلك الكثرة. مما يعلم الأمة أن هذا هو اجتهاده صلى الله عليه وسلم، وهو مغفور له ما تقدم وما تأخر من ذنبه. وبالتالي فما أحوجنا نحن العباد للإكثار من الاستغفار والتوبة.

ويُحمل ذلك على أنه يكون من الأنبياء ما يكون من الطبائع البشرية من السهو والنسيان في الحياة العامة، كالسهو مثلاً في الصلاة. فقد صلى عليه الصلاة والسلام الظهر بمن معه ركعتين. فقال له ذو اليدين رضي الله عنه: أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أصدق ذو اليدين؟) فقال الناس: نعم. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى اثنتين أخريين)[٤] فالأنبياء معصومون، ولكن يكون الذنب فيما هو مثل ذلك مع ما هم عليه من العصمة، والحرص منهم على ألا يكون منهم الخطأ والنسيان. ومن ذلك قوله الله تعالى في سورة التوبة ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٣٣٥/٤) برقم (٧١٦٩)
(٢) البخاري، الجامع الصحيح (١٥٤/٤) برقم (٦٣٠٧)
(٣) البخاري، الجامع الصحيح (١٧١/٤) برقم (٦٣٩٩)
(٤) البخاري، الجامع الصحيح ، برقم (٧١٤)

لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ فهو في اجتهاده صلى الله عليه وسلم، الذي لم يوافق الأولى. وكذلك قوله تعالى في سورة التحريم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ ﴾ فهو اجتهاد كان خلاف الأولى، يا أيها النبي لِمَ تمنع نفسك عن الحلال الذي أحله الله لك، ابتغاء إرضاء زوجاتك، مراعاة لهن. بمعنى لم يكن مخالفاً لنص في شريعة الله سبحانه وتعالى. فهو توجيه للحث على الأولى، لبيان خطأ الاجتهاد في ترك الأولى. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في تعليقه على هذه الآية ﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ الاستغفار معناه طلب العبد من ربه عَزَّ وجل غفران ذنوبه، فإذا لم يكن ذنوب تُغفر، لم يكن لمسألته إياه غفرانها معنى، لأنه الْمُحال أن يُقال: اللهم اغفر لي ذنباً لم أعمله[١] فلا يتعمد ذنباً عليه الصلاة والسلام، فحاشاه وأبعده عن ذلك، بل وما أبعده عن دقيقه وصغيره، ولكن قد يكون في ترك الأولى. فإثبات توجيه الله تعالى أعظم من نفيه أو تأويله على ما لا يحتمل من التأويل. وإنما الواجب في فهم محدودية الذنب، وقصوره على محيطه بأنه في ترك الأولى في الأمور العامة، والنسيان والسهو، وليس في الدين وفي الرسالة.

ثم قال سبحانه وتعالى ﴿ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ ﴾ والإتمام هو الإكمال، والاستيفاء لجميع مفردات وأنواع النعمة. ليشمل الإنعام في الدنيا، والإنعام في الآخرة. ووردت النعمة مفردة، لتستوفي جميع جنسها، من أصنافها وأنواعها، فلن يمنع عنه سبحانه وتعالى أي نعمة، بل جمع له كمال الإنعام، فقد أنعم عليه بالنبوة والرسالة والقرآن والوحي، والحكمة، والإسراء والمعراج، وبالنصر، وحسن الخاتمة، ومحبة أصحابه له، وإقامة الدين، وإظهاره على سائر الأديان، وكمال الطاعة، ودخول الجنة في الآخرة، فيشمل قوله تعالى ﴿ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ ﴾ جميع مفردات جنس الإنعام التي لا يحصيها المخلوق ولو اجتمعوا.

ثم من تمام الإنعام قوله تعالى ﴿ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ ويجعلك على كمال الهدى، الذي هو دين الله تعالى، وقد قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لِمَنْ سألها عن خُلُقِه صلى الله عليه وسلم. قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإن خُلُق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن[٢] مما يفيد أنه كان عليه الصلاة والسلام متمثلاً بهدي القرآن العظيم، فهو على نهج صراط الله المستقيم، كما أخبر الله تعالى

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣٧/٢١)

(٢) مسلم، صحيح مسلم (٥١٢/١-٥١٣) برقم (٧٤٦)

﴿ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ مما يدل كذلك على انتفاء تحصيل الذنوب بهذا الاصطفاء من الهداية. ومن دقائق البيان وإعجازه أن الهداية لم ترد بصيغة المستقبل، بل وردت بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ وَيَهۡدِيَكَ ﴾ الذي يدل على أنه حقق الله تعالى فيه ذلك، وسيستمر عليه إلى أن يتوفاه الله تعالى، ويقبضه إليه عَزَّ وجل. فصلى الله وسلم على نبينا محمد. وكما هو إعجاز في دقة البيان، فكذلك هو إعجاز في مسيرة سيرته عليه الصلاة والسلام، إذ كان وفق ما زكاه به ربه تبارك وتعالى. فلم يذكر عنه أصحابه رضي الله عنهم إلا كمال الأخلاق والصفات، عليه أفضل الصلاة والسلام.

وإضافة إلى الفتح الذي تصدر السورة ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾ ومغفرة الذنوب ﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ والهداية والتوفيق ﴿ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ فقد خَصَّهُ أيضاً سبحانه وتعالى بالنصر، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴾ وينصرك على من يعاديك نصراً مُظَفَّراً، مليء بالعزة، التي لا إذلال فيها. بحيث لا يهزمك أحدٌ أبداً. وبالفعل نصر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم نصراً عزيزاً مُظفراً بالقوة والعزة والمنعة. فأصبحت هذه آية من آيات الله تعالى، الدالة على أن هذا دين الله تعالى، وهذا رسوله صلى الله عليه وسلم، إذ تحقق ما وعد به القوي العزيز، جَلَّ في علاه.

ومن دقائق البيان أن أسند الله تعالى النصر له عَزَّ وجل ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ ﴾ فأظهر تبارك وتعالى أن الناصر له هو تبارك وتعالى، ليفيد معيته لرسوله عليه الصلاة والسلام. وهذه بشارة للمؤمنين، وإنذار للأعداء. كما وصف الله تعالى هذا النصر بالعزة ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴾ نصراً منيعاً، شامخاً بالعزة والقوة والقهر للأعداء، وخالياً من أن يغلبك أحد أبداً. وفي هذا غاية الإكرام للرسول صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين، ولدينه عَزَّ وجل، مع ما منح سبحانه وتعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام من كمال النعمة وتمامها.

ثم بعد بيان ما أكرم الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم، يتدرج البيان إلى شأن أصحابه رضي الله عنهم، فيقول تبارك وتعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ هو ربكم أيها المؤمنون لا غيره الذي أنعم عليكم بالطمأنينة والسكون ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فتحقق بها ثباتكم في المحن وعند الصعاب، وعند لقاء العدو، وعند الفتن التي تزعزع القلوب والأفكار، أو تجلب الهموم، أو تَضْعُف فيها النفوس. فتظهر هنا قيمة السكينة، ومنزلتها وفَضْلها على المؤمنين، إذ لا جالب لها إلا الله سبحانه وتعالى.

ومن دقائق السياق أن حصر إنزال السكينة باسم الإشارة ﴿ هُوَ ﴾ مع اسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ ﴾ فهو سبحانه وتعالى الذي تولى إنزال السكينة في قلوب المؤمنين بمنه وكرمه. وأفادت ﴿ أَنزَلَ ﴾ الإتيان بها من ربكم، من العلو في السماء إلى مكانكم في الأرض، للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وسرعتها، وقوتها. ثم ذكر تبارك وتعالى الْمُنَزَّل وهي السكينة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ أي: الطمأنينة والاستقرار الذي يتحقق به ثبات القلب، فيمتد أثره على قوة الإرادة والعزيمة، ثم ليظهر أثر ذلك على جميع البدن، ومنها الجوارح، فتثبت الأقدام عند لقاء العدو، فلا تظهر له رهبة ولا مهابة ولا انزعاج، فتثبت النفوس، ساكنة مطمئنة على الحق عند الابتلاء والفتن. ثم عَيَّن تبارك وتعالى موقعها من البدن ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فمكانها هو القلب. بما يدل على أن القلب هو مصدر التأثير على جميع الجوارح، وكامل البدن. وأن القلب هو المضغة الصغيرة الحجم، والكبيرة والعظيمة الفائدة، والتي تُظهر عظمة خلقه سبحانه وتعالى. فقد تحقق بها ثباتهم في المحن وعند الصعاب، وعند لقاء العدو، وعند الفتن التي تزعزع القلوب والأفكار، أو تجلب الهموم، أو تهزم وتَضْعُف فيها النفوس. فتظهر هنا قيمة السكينة، ومنزلتها وفضلها على المؤمنين، إذ لا جالب لها إلا الله سبحانه وتعالى.

وقد سماهم الله تبارك وتعالى بالمؤمنين ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهذه تزكية من ربهم لهم، بأنهم المؤمنون الذين صَدَّقُوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بكل ما نزل عليه من الوحي، فلم تخالجهم الشكوك أبداً.

وقد أعطى هذا البيان فضل نعمة السكينة، مما يفيد أن من أعظم إنعام الله تعالى على العبد أن يعطيه السكينة، التي تجعله في طمأنينة في أحواله كلها، فلا يبتئس من قِلة، ولا يدركه الخوف، ولا تتزلزل أقدامه أمام المخاوف، ولا يكون جشعاً في طلب مراده، ولا يخاف من حوادث الأيام، لأن قلبه مطمئن بالتوكل على الله سبحانه وتعالى. وفي ربط السكينة بقلوب المؤمنين دليل على قوة علاقتها بالإيمان، وأنه كلما قوي الإيمان زاد الله تعالى العبد سكينة وطمأنينة. مما يتطلب معالجة الإنسان لإيمانه وصلاح أعماله، مع الدعاء بأن يمنحه الله تعالى السكينة. فإن مَن تَحَصَّلَ عليها، فقد حَصَّلَ السعادة برمتها.

ثم يتدرج البيان الكريم في إظهار سبب وعلة هذه السكينة التي أنزلها سبحانه وتعالى في قلوب المؤمنين، فقال جَلَّ جلاله ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ ليزدادوا بهذه السكينة إيماناً على ما عندهم من الإيمان، فيحصلون بها على درجات أزود وأعلى في طبقات الإيمان، مما يبين ويفيد أن الإيمان درجات، وأن هناك تفاضل في الإيمان، وأن هناك ارتباط وثيق بين السكينة وبين الإيمان. وأنه كلما زاد الإيمان ارتفع مستوى السكينة في القلب. وهذا يدل على عظيم عنايته سبحانه وتعالى بالمؤمنين. فكلما أكثر العبد من الطاعة لله تعالى

ازداد إيماناً وسكينة. فاطمأنت نفسه، وارتاح باله، وقويت عزيمته على الخير، وفعل الخير، ومواجهة الشدائد بصبر وطمأنينة.

ثم يتدرج السياق إلى الإخبار بعظمة سلطانه سبحانه وتعالى، وأن كل ما هو في الكون هو جند له عَزَّ وجل، فينصر به من يشاء، ويهزم به من يشاء، فقال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فإن لله تعالى جنود السماوات، وكذلك جنود الأرض. فكل شيء في هذا الكون هو جند لله تعالى، يسلطه على من يشاء لهزيمته أو إهلاكه، ويجعله عوناً لمن يشاء لإعانته في أي أمر وشأن، فالملائكة جنود، مثلما جعلهم الله تعالى في الغزوات مع رسوله صلى الله عليه وسلم، كما في سورة الأنفال. وكذلك الشياطين، هم جنود من جنوده سبحانه وتعالى، إذ جعلهم تحت إمرة سليمان عليه السلام، بل حتى الريح جعلها الله تعالى تسير بأمر سليمان عليه السلام. وكذلك النار هي نوع من جنوده جَلَّ شأنه، إذ جعلها برداً وسلاماً على إبراهيم، والرياح جنود لله تعالى، وقد أهلك بها قوم عاد. ولو شاء لجعل الريح رواكد، وبالتالي لا تتحرك السفن الشراعية، ولا تتحرك الأشجار. وقد سلط على قوم فرعون الطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم. ونصر رسوله صلى الله عليه وسلم بالرعب يقذفه في قلوب أعدائه، وبالملائكة، وبالريح. فكل شيء هو جند لله تعالى، يسلطه على من يشاء ليهزمه أو يُهلكه، فيجعله عوناً لمن يشاء لإعانته ونصرته.

فكل شيء جند من جنود الله تعالى فيما يسخره عَزَّ وجل. ليدرك المؤمن أن كل شيء هو جند من جنود الله تعالى، وليدرك قوة الله تعالى ورحمته وعنايته العظيمة إذ التفت واعتنت بقوم أعزتهم ونصرتهم، وخذلت عدوهم، مهما كانت قوة العدو. مما يربي في المؤمن الثقة بالله عَزَّ وجل والتوكل عليه سبحانه وتعالى.

ثم يخبر جَلَّ شأنه عن عظيم علمه وحكمته، فقال تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فهو العليم الحكيم، فإن ربكم سبحانه وتعالى عليم بما كان وما يكون ويجري، وما سيكون من عموم خلقه، ومنهم الإنسان. فأفاد قوله تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ شمول وكمال العلم، بحيث لا تخفى على الله تعالى خافية سبحانه وتعالى. وكذلك ربكم حكيم فيما يأمر به، وينهى عنه. فإن أمره ونهيه عن علم وحكمة، مما يستوجب الأخذ والتمسك به. وبالتالي فإن من كان له كمال العلم، عرف ما كان وما سيكون منكم، ومن كل شيء. بما يغرس الطمأنينة من جهة، ومراقبته من جهة أخرى في السر والعلن.

وأفادت دلالة ﴿ عَلِيمًا ﴾ شمول وكمال العلم، بحيث لا تخفى على الله تعالى خافية. وسواء ما كان، أو ما سيكون. فهو سبحانه وتعالى عليم بما كان وما يكون، وما سيكون من عموم خلقه، ومنهم الإنسان. فأعطت دلالة ﴿ عَلِيمًا ﴾ شمول وكمال علمه عَزَّ وجل، بحيث لا تخفى على الله تعالى خافية سبحانه وتعالى.

وأفادت دلالة ﴿ حَكِيمًا ﴾ إنه عَزَّ وجل هو الحكيم الذي له كمال الحكمة. أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، وكمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. وكذلك ربكم حكيم فيما يأمر به، وينهى عنه. فإن أمره ونهيه عن علم وحكمة، مما يستوجب الأخذ والتمسك به. وبالتالي فإن من كان له كمال العلم والحكمة، عرف ما كان وما سيكون منكم، ومن كل شيء.

وقد تضمن هذا البيان الكريم التقرير بأنه سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء، فقد ورد العليم والحكيم ﴿ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ بصيغة المبالغة التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله. كما استطلع البيان وابتدأ بحرف ﴿ وَكَانَ ﴾ لإفادة: أن الله تعالى عليم حكيم منذ الأزل، فهما صفتان عظيمتان جليلتان لله عَزَّ في علاه. ومن فوائد دلالة ﴿ وَكَانَ ﴾ أنها تعطي اتصال الزمن من غير انقطاع بعلمه وحكمته تبارك وتعالى، لتعطي معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة التي لا تنقطع، سابقاً ولاحقاً.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى بالمزيد من الإيضاح لأسباب ما سبق مما أفاض على المؤمنين من السكينة، والنصر، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ فهذا الفتح وهذا النصر، وهذا الجهاد من الرسول والمؤمنين، وهذه المعية من الله تعالى بعلمه وحكمته وتدبيره ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ فخص المؤمنين، وجمع معهم المؤمنات، ليظهر معية المؤمنات مع المؤمنين، بأن جزاء الإيمان يشمل الذكور والإناث، ولإزالة أي توهم مخالف لمراد الله تعالى، ولبيان كمال لطفه، ودقة بيانه، ثم وصف سبحانه وتعالى الجنة بقوله عَزَّ وجل ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ فإن الله تعالى يدخل المؤمنين والمؤمنات جنات، قد اتصفت بكثرة الأنهار. فالجنات هي بساتين تجري من خلالها الأنهار، في جريان مستمر، لا ينقطع، ولا يضعف. إذ تتخلل الأنهار الجنة، في جريان من غير انقطاع. وقد ورد البيان للأنهار بصيغة الجمع، ليدل على كثرتها وأنها تتدفق من تحت تلك المباني، فيزداد بها المؤمن سعادة وبهجة وسروراً. إذ تجري الأنهار من أسافلها، فتمر في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وبين أشجارها وقصورها.

ثم يقول سبحانه وتعالى عن استمرار الحياة فيها ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ فحياتها خلود دائم لا ينقطع، ولا ينتهي ولا يزول. اللهم نسألك الجنة لنا وللمسلمين أجمعين يا رب العالمين. ومن مزيد الإنعام عليهم قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ فالتكفير هو محو وإزالة أثر السيئات التي عملوها في الدنيا، وذلك

بدفع الضرر المترتب على ما كان من أعمالهم التي تستوجب العقوبة. وهذا غاية الكرم من الله تعالى، بأن يكفر عن المؤمنين سيئاتهم. وقد وردت بصيغة الجمع، ليبين أنها وإن كثرت، فإن الله تعالى يعفوا ويصفح.

ثم يُخبر سبحانه وتعالى عن عظمة هذا الجزاء، لمن تحصل عليه، فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ فمن حَصَّل على هذا الجزاء فقد نال وظفر بالخير ظفراً عظيماً في الدنيا والآخرة. بل ورد الفوز بصيغة التحقق والتعظيم، بأنه ﴿ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ فوزاً قد تعاظم، بما يفيد المبالغة في عظمته. فهو ليس فوزاً سهلاً، ولا قليلاً، بل متعاظم في منزلته، ومقداره وقدره، ورفعته، وكثرته، بما لا يُوصف. مما يحفز المؤمن ويعلمه أن ثواب الله تعالى وكرم عطائه عظيم لمن اتقاه وأطاعه، فمن كثرتها وقوتها وعظمتها لا يستطيع أحد أن يُوزن ويُقَيِّم ويُقَدِّر عظمة كرم الله تعالى وجزيل عطائه. وأفاد حرف ﴿ وَكَانَ ﴾ في قوله تعالى ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ أن هذا الفوز كائن ومتحقق عند ربكم. فكل من تحقق منه مُوجبه من الطاعة فقد ناله.

وبعد هذا البيان من الجزاء العظيم للمؤمنين؛ يتجه السياق الكريم إلى بيان مصير المنافقين والمشركين، وما ينالهم من عذاب ربهم، فقال تعالى ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ يخاطب الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه إضافة للفتح المبين، ونصرك النصر العزيز المبين، وإدخال المؤمنين والمؤمنات الجنة، فإنه يعذب المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات بما ينالهم من عذاب الحزن والهم على انتصارك المتتالي، وظهور كلمة الإسلام. قال المفسرون رحمهم الله تعالى: أي: يعذبهم في الدنيا بما ينالهم من الهموم والغموم بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام، وقهر المخالفين له، وبما يصابون به من الهزائم والقتل والأسر، وفي الآخرة بعذاب جهنم[1] مما يبين مستقبل الإسلام الزاهر، ومستقبل هؤلاء المنافقين والمشركين المملوء بعذاب القهر والنكاية.

وقد فَنَّد البيان أوصاف الفئتين، بل أمعن في التفنيد حتى الذكور والإناث من الفريقين ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ﴾ إمعاناً في إظهار اشتراكهم جميعاً فيما أظهرته وبينته الآية الكريمة من سوء الظن بربهم تبارك وتعالى. وفي تقديم المنافقين على المشركين ما يدل على عظيم كفرهم، لأنهم

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤٨/٢١) القرطبي ( ١٧٦/١٦) الشوكاني (٤٥/٥)

يتخفون بادعاء الإيمان، وهم يبطنون الكفر، بينما المشركون أظهروا العداوة علانية. وهذا من دقة البيان ودقة عدل الله تعالى فيهم.

ثم أخبر وكشف تبارك وتعالى ما في قلوب هؤلاء الكفرة، فقال عَزَّ وجل ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ الظانين بأن الله تعالى لن ينصر رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فظنوا أنه حين خرج إلى الحديبية أنه سَيُهزَم ويُقْتَل صلى الله عليه وسلم. وكذلك من ظنون المشركين: أن مع الله تعالى شركاء، وأن الله لا يبعث من في القبور. ثم عاقبهم الله تعالى بأن قلب عليهم ظنونهم، فقال جَلَّ شأنه ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾ فعلى هؤلاء تدور وتنعكس دوائر السوء من العذاب والمهانة والخزي والقهر، فجمعت دائرة السوء أصناف السوء وأنواعه. ومن جميل البيان الكريم ودقته أن وصف تخطيطهم وتنظيمهم واعتقادهم السيء بأنه عائد وراجع عليهم، بأن تلتف عليهم، كما يلتف محيط الدائرة على ما بداخلها. فأحاط بهم إحاطة لا مخرج لهم منها. وهذا من أشد العذاب الدنيوي، بأن التخطيط والتنظيم الماكر يعود على صاحبه فيقهره قهراً وإذلالاً.

ثم يزداد البيان توضيحاً وإظهاراً لعذاب الله تعالى لهم بالمقت والغضب عليهم، فيقول جَلَّ شأنه ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ فقد نالهم غضب الله تعالى. وهو أن عليهم مقت الله تعالى الذي هو غضبه، المستوجب طردهم وإبعادهم عن رحمته عَزَّ وجل. بما يفيد: السخط من الله تعالى عليهم. ثم يؤكد سبحانه شدة غضبه عليهم بقوله عَزَّ وجل ﴿وَلَعَنَهُمۡ﴾ وهو الطرد والإقصاء عن رحمته جَلَّ في علاه ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ وهيأ لهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ﴾ التي هي النار الشديدة الحرارة، والبعيدة القعر ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ وساء منزلاً ينزلون فيه، ويصيرون إليه. وفي هذا البيان من الله تعالى ما يفيد التحذير لهم، والترهيب لهم، فكان الأولى بهم أن يقودهم الخوف إلى رجوعهم عن كفرهم إلى طاعة ربهم، باتباع وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولكن الاستكبار والعناد، والحسد، واتِّبَاع الهوى يقود صاحبه إلى الهاوية. ونسأل الله تعالى العافية والسلامة في الدنيا والآخرة.

ثم يؤكد الله تعالى ما ذكره آنفاً من أن له جنود السماوات والأرض، فقال عَزَّ وجل ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فإن لله تعالى جنود السماوات، وكذلك جنود الأرض. فكل شيء في الكون هو جند لله تعالى، يسلطه على من يشاء لهزيمته أو إهلاكه، ويجعله عوناً لمن يشاء لإعانته في أي أمر وشأن. فقد سلط على قوم فرعون الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. ونصر رسوله عليه

الصلاة والسلام بالرعب في قلوب أعدائه، وبالملائكة، وبالريح. فكل شيء هو جند لله تعالى، يسلطه على من يشاء فيهزمه أو يهلكه، وفي المقابل يجعله عوناً لمن يشاء لإعانته ونصرته.

ثم يخبر جَلَّ شأنه عن عظيم عزته وحكمته، فقال تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ فهو العزيز. أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. والصفة الثانية: ﴿ حَكِيمًا ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير. فربكم حكيم فيما يأمر به، وينهى عنه. فإن أمره ونهيه عن علم وعزة وحكمة، مما يستوجب الأخذ والتمسك به. وبالتالي فإن من كان له كمال العزة، وجبت طاعته الخوف من عذابه ونكايته.

وقد وردت العزة والحكمة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ بصيغة المبالغة التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله. كما استهل البيان بحرف ﴿ وَكَانَ ﴾ لإفادة: أن الله تعالى عزيز حكيم منذ الأزل، فهما صفتان عظيمتنا جليلتان لله عَزَّ في علاه. ومن فوائد دلالة ﴿ وَكَانَ ﴾ أنها تعطي اتصال الزمن من غير انقطاع بعلمه وحكمته تبارك وتعالى، لتعطي معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة التي لا تنقطع، سابقاً ولاحقاً.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ
وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن
نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ
ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي
قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
خَبِيرَۢا ﴿١١﴾ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ
وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ
سَعِيرٗا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا
رَّحِيمٗا ﴿١٤﴾ ﴾

ويستمر اتجاه الخطاب من الله تعالى إلى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، وهو بيان وإيضاح لمهامه ومسؤولياته، فيقول تبارك وتعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ فقد أرسلناك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بالرسالة مبشراً بالجنة لمن صدقك واتبعك، ومنذراً بالنار وسوء العذاب لمن كذبك. فهناك مهام ومسؤوليات تحدد ما يجب أن يقوم بها الرسول صلى الله عليه وسلم، وما عدا ذلك فلست مسؤولاً عنه، كإلزام الناس بالهداية. فالمهمة الأولى لك أيها الرسول ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا ﴾ أي: شاهداً على أمتك بإبلاغ ما أُرسلت به إليهم من دين الله تعالى. والمهمة الثانية: ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ أي: مبشراً بالجنة لمن صدقك واتبعك، بطاعة ربه عَزَّ وجل. والثالثة: ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ أي: منذر بالنار وسوء العذاب لمن كذبك. وفي هذا البيان من الله تعالى ليعلم الناس بأن ليس على الرسول صلى الله عليه وسلم مسؤولية من امتنع عن الإسلام ولم يستجب، فكل إنسان يتحمل مسؤولية نفسه، ووزر امتناعه وذنوبه.

وبعد أن بين وأوضح تبارك وتعالى مسؤولية رسول صلى اله عليه وسلم، والمطلوب منه، يخبر بعد ذلك سبحانه وتعالى بما هو مطلوب من العباد، فيقول تبارك وتعالى ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ فأرسلنا إليكم الرسول عليه الصلاة والسلام لتصدقوه، وتحققوا الإيمان بربكم، وبرسوله صلى الله عليه وسلم. فجعل الله تعالى الإيمان به عَزَّ وجل متعاضد بالإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم، فقال عَزَّ وجل ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ فلا يتحقق الإيمان إلا به سبحانه وتعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم معاً، فإذا تم الإيمان بذلك فقد تم الإيمان بما جاء به عن ربه تبارك وتعالى، وأوله القرآن العظيم.

ثم تدرج البيان إلى مقتضيات الإيمان ومتطلباته، وأولها قوله جَلَّ شأنه ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أي: تنصروه، فتمدوه بتأييدكم ونصرته للدين، وهذا يشمل نصرته بالقول وبالفعل، فتجاهدون معه في سبيل الله تعالى. ثم ذكر الواجب الثاني: ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ وتقوموا بحقوقه من الاحترام والإجلال والتقدير والتعظيم. مما يبين منزلة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأهمية إنزاله المنزلة الرفيعة.

ثم انتقل البيان إلى تعظيم ذكره جَلَّ جلاله، فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ فنَزِّهُوا ربكم بالصلاة والتسبيح والتمجيد عما لا يليق به خاصة ﴿ بُكْرَةً ﴾ الذي هو أول النهار ﴿ وَأَصِيلًا ﴾ أي: وآخر النهار. الذي هو: وقت الأصيل. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: هذه الهاء

في ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ ترجع إلى الله عَزَّ وجل. والمراد بتسبيحه هاهنا: الصلاة له تبارك وتعالى. قال المفسرون: والمراد بصلاة البكرة: الفجر. وبصلاة الأصيل: باقي الصلوات الخمس[١] وقال الطبري رحمه الله تعالى: ويصلوا له، يعني لله تعالى بالغدوات والعشيات[٢] مما يدل على أهمية الصلوات.

ومن سعة دلالة هذا البيان أنه يمتد ويشمل أيضاً دلالة التسبيح بالذكر، قال القرطبي رحمه الله تعالى: وفي ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ وجهان: تسبيحه بالتنزيه له من كل قبيح. والثاني: هو فعل الصلاة، التي فيها التسبيح[٣] وقد ورد في سورة الأحزاب ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ وكل الصلوات مشتملة على التسبيح في الركوع والسجود. فجمعت رحابة البيان كلتا الدلالتين في تظافر وتعاضد من غير تعارض وتضاد. وهذا من قوة ودقة البيان، بأن يشتمل على المراد من غير تكرار السياق لبيان هذا وذاك. كما أن في هذا التخصيص ما يفيد أهمية هذين الوقتين من بين جميع الأوقات، وأهمية التسبيح بالذكر ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: أول النهار، وآخره. وذلك لما يشتمل عليه من التنزيه المنافي للشرك، خاصة في الإبكار، وعند الأصيل.

ثم يتناول البيان الكريم من الله العزيز العظيم شأن الصحابة في بيعة الرضوان بالحديبية، فيقول جَلَّ جلاله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ إن الذين يبايعونك بالمعاهدة والعهد أيها النبي بالحديبية، تحت الشجرة التي عاهدوا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الثبات معه، وعدم الفرار عنه، فباعوا أنفسهم إلى الله تعالى، فإنما بيعتهم هذه لك يُصدقها الله تعالى، ويشهد لها بالمعية والنصرة والمثوبة، وأما من نكث وأخلف فإنما وبال ذلك عليه، وأما من وَفَّى وأوفى بالعهد فسيناله من الله تعالى عظيم الأجر.

وقد بدأ البيان الكريم بحرف ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة التي تعطي دلالة توكيد مع بعدها من البيان، وإظهار قوة العناية والاهتمام من رب العباد. ثم أشار تبارك وتعالى للصحابة الذين بايعوه صلى الله عليه وسلم بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ليفيد الإشارة لهم بالتمجيد الذي يقرره ويؤكده ما بعده ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٣/٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٥٣/٢١)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٧/١٦)

أي: يعاهدونك، وتم تسميتها بالمبايعين، التي تعطي دلالة العهد ببذل أنفسهم مقابل نصرة دين الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. وسماها الله تعالى مبايعة لتعطي دلالة العِوَض. التي قابلها الله تعالى بختام الآية الكريمة ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ بما يفيد أنه مقابل هذا العهد ببذل النفس، فإن لهم من الله تعالى عظيم الأجر. مما يدل على قوة وصدق إيمان أولئك الصحابة رضي الله عنهم، الذين بايعوا الرسول عليه الصلاة والسلام.

ومن دقائق البيان الكريم أنه بالرغم من أن هذه السورة نزلت وهم حال عودتهم من صلح الحديبية إلا أن الله تعالى أورد المبايعة بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ يُبَايِعُونَكَ ﴾ لتفيد استمرار أثرها، وعلو شأنها، وامتداد أثرها لما هو قادم، ولذلك قُسِّمت غنائم خيبر عليهم رضي الله عنهم.

ثم عَظَّم الله تبارك وتعالى هذه المبايعة، فقال سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ إن هؤلاء الذين يبايعونك أيها النبي صلى الله عليه وسلم إنما هم يبايعون ربهم تبارك وتعالى. بما يفيد تعظيم هذه المبايعة وتشريفها، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم يمثل ربه عَزَّ وجل، مما يفيد أن من أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم فإنما هو يطيع ربه تبارك وتعالى. وفي هذا رفع لمقام البيعة، ورفع لمقام الصحابة الذين بايعوا، ورفعة لمقام النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المكانة الجليلة.

ثم إنها وردت بصيغة الحصر، فأفاد حرف ﴿ إِنَّمَا ﴾ أن بيعتهم هي بيعة مع الله سبحانه وتعالى. فرفع عَزَّ وجل مقام المبايعة منهم إليه جَلَّ جلاله ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ تعظيماً لهذه المبايعة، ورفع منزلتها ومكانتها. ثم يزداد التوكيد والتعظيم لها، فيقول تبارك وتعالى ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وفي دلالتها ما يفيد أن الله تعالى معهم على الوفاء والثواب والنصرة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: في ذلك وجهان من التأويل: أحدهما: يد الله فوق أيديهم عند البيعة؛ لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيه صلى الله عليه وسلم. والآخر: قوة الله فوق قوتهم في نصرة رسوله صلى الله عليه وسلم[1] مما يفيد معونة الله تعالى لهم على الوفاء، وعلى نصرتهم، وعلى مثوبتهم.

وحصلت بيعة الرضوان بعدما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قريش، يخبرهم بأن مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه إلى مكة هو بغرض العمرة، وليس لقتال. ثم أشيع أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قُتِل. وهنا حدثت بيعة الرضوان. حيث بايع الصحابة رضي الله عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعاً، سوى الجد بن قيس، كما جاء في رواية جابر رضي الله عنه: أن

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٢٥٤-٢٥٥)

أبا الزبير سمع جابراً يُسأل: كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربع عشرة مائة. فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سمرة. فبايعناه، غير جد بن قيس الأنصاري، اختبأ تحت بطن بعيره[١] وفي هذه البيعة ما يبين أهمية التعاهد والتعاون، والتعاضد، لما في ذلك من تقوية قوة الجماعة، وتعزيز القلوب والنفوس بالمبايعة والمعاهدة الصارمة.

ثم بعد هذا التعظيم من الله تعالى للبيعة وأهلها، يؤكد سبحانه وتعالى التحذير والتفظيع من عدم الوفاء بها، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ فإن مَن نقض هذه البيعة فإنما وبال وضرر نكثه عائد عليه فقط، بما يستحق من العقوبة، ومن فَوَاتِ الأجر عليه. وقد أفادت أداة الحصر ﴿ فَإِنَّمَا ﴾ قصر عائد الضرر على من نكث فقط، فلن يتعداه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا على من أوفوا بما عاهدوا الله تعالى عليه. ولن يكون له أثر على دين الله تعالى، بما يفيد أن الله تعالى ناصر دينه ورسولَهُ والمؤمنين ولو نكث مَن نكث. ليعطي دلالة أن نُصرة الله تعالى متحققة تمام التحقق، وإنما هم أسباب، وقوة الله تعالى ومراده ماض، فلن يوقفه من نكث ونقض.

ومقابل هذا التحذير يخبر سبحانه بجزاء وثواب من أوفى بما عاهد عليه الله سبحانه وتعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ومن ثبت على البيعة التي بايعها، وأوفى ووفَّى بما عاهد عليه ربه تبارك وتعالى من العهد والميثاق ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي: ثواباً متعاظم، لا يعلمه إلا الله عَزَّ وجل. فمن عظمة هذا الأجر، أن أورد سبحانه وتعالى وصفه بالعظيم. والتعظيم من الله تعالى يفيد أنه لا يتصوره الإنسان من عظمته وكثرته في نوعه ومقداره، لِمَا عند الله تعالى من المثوبة والمنزلة في الدنيا وفي الآخرة. وهي الجنة، وهي درجات. مما يبين أن الله تعالى يحب الوفاء، بل إنه واجب على من تعهد لغيره بأمر، فكيف بمن تعهد لرسوله صلى الله عليه وسلم. وقد ورد بهذا الحدث البيان الجليل من الله تعالى. مما يربي الأمة على التعاضد، وعلى منهج الوفاء والالتزام.

ثم يشير الله تعالى إلى الذين تخلفوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أراد عليه الصلاة والسلام الذهاب إلى مكة بقصد العمرة، وما حصل من صلح الحديبية. فقال تبارك وتعالى ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فهذا إعلام

---

(١) مسلم، صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٣) برقم (١٨٥٦)

مسبق من الله تعالى بما سيقوله الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. لأنه عندما أراد صلى الله عليه وسلم العمرة استنفر من حول المدينة من الأعراب ليخرجوا معه، فتثاقل الكثير منهم. والأعراب اسم جنس للبدو من العرب، وهم سكان البوادي، ومفردها أعرابي. وهؤلاء هم الذين قصدهم الله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ فسيقول لك هؤلاء الذين تخلفوا عن الذهاب معك إلى مكة حين تسألهم عن سبب وعلة تخلفهم ﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ فيعتذرون بأن الذي جعلهم يتخلفون عن صحبته صلى الله عليه وسلم هو الانشغال برعاية أموالهم وأهليهم، من الولد والنساء، والصغار ﴿ فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ فاسأل لنا الله تبارك وتعالى أن يغفر لنا ذنوب تأخرنا عن مصاحبتك. مما يفيد أنهم مُدْرِكُون بأن مخالفتهم بالتأخر عن صحبته صلى الله عليه وسلم أنها إثم.

ثم يكشف الله تعالى عن سرائرهم، وحقيقة أقوالهم، بأنها كاذبة لا صدق فيها، فإنه لم يشغلهم عن ذلك ما ذكروه فيقول عَزَّ وجل ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ يقولون بألسنتهم مما قالوا من القول ما يخالف الذي في قلوبهم، فإن الذي منعهم خلاف ما ذكروه بألسنتهم. مما يفيد أنهم غير صادقين فيما قالوا بألسنتهم. مما يبين عظيم عِلم الله تعالى، وأنه عالم بالضمائر والحقائق، وأن على الإنسان أن يتعامل مع ربه بكل صدق، فإنه يعلم ما تخفي الصدور، فإن الله تعالى يعلم مكنون النفوس على ما هي عليه. فقلوبهم لم تكن موافقة لما قالوه. مما يفيد أن سبب ذلك هو ضعف إيمانهم. فهو تكذيب لهم.

ثم يُوجه اللهُ تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله لهؤلاء المتخلفين، فقال عَزَّ وجل ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾ فوعظهم بما يصحح لهم أفهامهم، وبما يبين عظيم قدرة الله تعالى عليهم ﴿ قُلْ ﴾ أيها النبي لهم ﴿ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ﴾ فمن يستطيع أن يمنعكم مما أراده الله تعالى بكم، سواء كان بخير أو بشر؟ سؤال استنكار لما كان منهم، ونفي من أن يكون في أذهانهم وسيلة يمتلكونها لتدفع عنهم مراد الله تعالى بهم ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا ﴾ سواء من القتل أو النكاية، أو أي نوع من أنواع الضر الذي لا حصر له. قليله أو كثيره. ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ﴾ أو أراد بكم ما يتحقق به النفع لكم. من عموم الخير، ليشمل الغنائم، والنصر، وعموم الرزق والخير من غير تفصيل وتحديد. بما يفيد أنكم تحت مشيئة الله تعالى وإرادته وسلطانه على أي وجه أراد أن يحققه فيكم. وبما يفيد أن مشاركتكم أو امتناعكم لا يمنع عنكم ما أراده الله تعالى لكم من ضر أو نفع. فامتناعكم لا يعني تحقق الخير لكم، وأنكم في أمن وسلام. فعليكم أن تتعاملوا مع ربكم على أنه هو الذي بيده الضر، منعاً وتحصيلاً، وهو الذي بيده الخير، منعاً وتحصيلاً، وليس أن تحصروه في الأسباب،

فإن مراد الله تعالى لا تمنعه ولا تجلبه الأسباب ما لم يرده الله تبارك وتعالى. مما يعلمهم، ويعلم كل أحد بأن لا يحصر الإنسان حصول الشيء من خير أو شر في الأسباب فقط، فيجردها من مشيئته سبحانه وتعالى، فإن إرادة الله تعالى ومشيئته فوق كل سبب.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى تقرير ما يجب أن يرسخ في قلوبهم ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فإن ربكم خبير بأن تخلفكم ليس كما زعمتم. فبدأ البيان بحرف ﴿ بَلْ ﴾ الذي يفيد النفي، بأن الأمر والشأن ليس كما قلتم، لأن ﴿ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فربكم عليم بسرائركم وضمائركم، فهو خبير بكل ما تعملون، فإنه عَزَّ وجل عليم به إلى أقصى ما يكون، فلا تخفى عليه خافية منكم أبداً. ودلالة الخبير في قوله عَزَّ وجل ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾: تعني وتفيد: إحاطة علمه سبحانه وتعالى بظواهر الأشياء وبواطنها. وعالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فمن كانت هذه صفاته المجيدة سبحانه وتعالى، فإنه يُحصي عليكم دقائق أعمالكم، فلا يفوت منها شيء، من خير أو شر، وأنكم محاسبون ومجزيون على ذلك. ففي ذلك ترغيب في عمل الصالحات مهما صغرت، وترهيب من المعاصي مهما خفيت وصغرت. والفعل ﴿ كَانَ ﴾ فعل ماضي، مفاده أن صفة الخبير صفة ثابتة لله تعالى، وليست حادثة لما وقع منهم، وخاصة بهم. بل إنها صفة من صفاته الكريمة. فالحمد لله رب العالمين على معرفته وعظيم علمه عَزَّ وجل.

فأفادت دلالة الخبير دقة العلم بهم، فإنه يعلم شأنهم على حقيقتهم، أكثر من علمهم بأنفسهم، كما أنه خبير بما يكون ويحصل منهم، سواء كان من جهل أو تعمد، أو لأي سبب آخر، فإنه سبحانه وتعالى يدرك حقيقة ما يكون من العباد من كل وجه، فهو الخبير بسرائر عباده، وضمائر قلوبهم، فيحفظ عليهم سبحانه وتعالى ما يتبعها من أثر. وخص جَلَّ شأنه أنه خبير بأعمالهم، باعتبار معالجة ما يجب عليهم من الاتِّبَاع، ومعالجة ما يخص تعاملهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم. وليكون بياناً لكل عباده الذين يخترعون الأسباب التي لا أصل لها، والذين يحملون سوء الطوية. وفي نفس الوقت هو تحذير وتهديد لهم. فيا أيها الناس إن الله تعالى بكل ما يكون منكم عليم به، فلا تخفى عليه خافية منكم، ما ظهر منها وما بطن منكم. لتشمل السرائر والنوايا، وما يتحدث به القلب، دون النطق به. مما يفيد احذروا من سيء الأعمال، وعليكم بأطيب الأعمال، فإنها لا تخفى على ربكم جَلَّ جلاله.

بل إنها قاعدة تربي المؤمن على الاستقامة، فإن منعته نفسه أو مانع عن فعل خيرو هو قادر عليه، ذَكَّرها بقوله عَزَّ وجل ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ وإن استهواه أمر مخالف لدينه قال لنفسه ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ وإن أراد غيره مخالفة أمر الله تعالى، وعظه وذَكَّرهُ بقوله تعالى ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا

﴿ تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ وإن أراد غيره الامتناع عن خير مقدور عليه، دفعه وحفزه بقوله تعالى ﴿ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فمن صاحب هذا العلم في حياته صاحبه الخير، ومنعه عن الشر والفساد، مما يبين نعمة القرآن العظيم في كل شأن من شؤون الإنسان. فالحمد والشكر لله العلي العظيم.

ثم يتدرج البيان من الله تعالى إلى كشف حقيقة امتناعهم عن الخروج مع الرسول صلى الله عليه وسلم، بما يُعَرّيهم ويُبطل قولهم، ويكشف أن الله تعالى خبير ببواطنهم، وبالأسباب الحقيقية لامتناعهم عن صحبته صلى الله عليه وسلم إلى مكة. فيقول عَزَّ وجل ﴿ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴾ فإن السبب في عدم صحبتكم للرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن انشغالكم بأموالكم وأولادكم ﴿ بَلۡ ﴾ الأمر غير ذلك ﴿ بَلۡ ظَنَنتُمۡ ﴾ ما توهمتم وأضمرتم في نفوسكم من الاعتقاد الفاسد، حسب تقييمكم وتفكيركم الضعيف، والمنحرف، فقد ﴿ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا ﴾ فظننتم أن لا يرجع الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون إلى المدينة، وإلى أهليهم أبداً، فاعتقدتم أن أهل مكة سيستأصلونهم كما جال في خواطركم الفاسدة.

بل من شدة جزمهم بذلك أن أظهر الله تعالى ما في قلوبهم بالتأكيد المتتالي، فأولاً: إعادة حرف ﴿ بَلۡ ﴾ تأكيداً لإبطال ظنهم. ثم تلاه حرف التأكيد ﴿ أَن ﴾ الذي يؤكد ما كان من ظنهم السيء. ثم حرف النفي ﴿ لَّن ﴾ الذي أفاد استمرار النفي مع الفعل المضارع المستمر ﴿ لَّن يَنقَلِبَ ﴾ ثم التحديد والتعيين لمن حصل الظن فيهم، وهم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ﴿ لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ ثم تحديد من هم أكثر رجاء وتعلقاً بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين، وهم الأهل ﴿ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ ﴾ لإعطاء وإضفاء الشفقة على أهليهم، والتشجيع لأنفسهم من إظهار حلاوة الامتناع وفائدته، لِمَا يعقب ذلك السفر من عدم العودة لأحب الناس، وهم الأهل، حسب ووفق ما يرونه من قوة العلاقة والتواد والجذب العاطفي للأهل. ثم التأكيد بدلالة القطع والجزم ﴿ أَبَدٗا ﴾ فلن يعودوا إطلاقاً، أبداً، فهو جزم مؤكد لظنهم وحسبانهم الباطل. وهاهم قد عادوا إلى أهليهم في نصر وظفر من الله تعالى.

ثم أوضح جَلَّ شأنه أثر الشيطان في تزيين ظنهم الباطل، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ وحُسِّن ذلك الظن الذي قطعتم وجزمتم به في قلوبكم. وبالتالي استقوت قلوبكم، وقويت إرادتكم على الامتناع من الخروج مع الرسول صلى الله عليه وسلم ومع المؤمنين. مما يفيد أن مكان التحسين والتزيين هو القلب، فهو الذي يقبل ذلك ويتشجع عليه أو يرفضه.

وقد أورد سبحانه وتعالى التزيين بصيغة الفعل الذي لم يُذكر فاعله ﴿ وَزُيِّنَ ﴾ فلم يذكر الذي زَيَّنَ لهم ظنهم، ليستوعب بشموليته الشيطان، وما تداولوه بينهم، فَحَسَّنَ بعضهم لبعض ما اعتقدوا من الظن والحسبان السيء. ليتبين من أنه لو لم يكن قد حصل منكم الظن السيء ابتداء لما حصل التحسين من الشيطان ومن بعضكم لبعض، وتماديتم فيه حتى وصلتم إلى الجزم بالنتيجة، من عدم عودتهم لأهليهم.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى ما انطوت عليه قلوبهم من الظنون السيئة التي شجعتهم على عدم مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فقال تعالى ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ فخمّنتم واعتقدتم النتيجة السيئة للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، بأنهم لن يعودوا إلى أهليهم أبداً، وهذا الظن انعكس عليكم، فجعلكم قوماً لا نفع ولا فائد منكم ولا فيكم ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ فأصبحتم خائبين هالكين؛ بما غلب عليكم من الشقاء.

والبائر هو الكاسد والفاسد الذي ليس له قيمة، ومن ذلك بوار السلعة، إذا تركها الناس ولم يُقْبِلُوا عليها، فلم تجد من يشتريها. فحالهم هو حال من لا قيمة ولا وزن له، فهو تشنيع لهم، ولِمَا كان منهم، إذ أفقدهم ظنهم السيء، وفعلهم القبيح القيمة الحقيقة التي يحظى بها المؤمن عند ربه تبارك وتعالى. مما يدل على أن الوزن والقيمة هي للإيمان والطاعة والتقوى؛ التي تجعل لصاحبها منزلة رفيعة عند الله تبارك وتعالى.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى التوضيح المبين لحال الكافرين، ومستقبل العذاب الذي ينتظرهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾ فمن لم يؤمن بالله سبحانه وتعالى، ويجمع معه الإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وما يترتب على ذلك من العمل والطاعة والإخلاص لله تعالى ظاهراً وباطناً، فله عذاب السعير. مما يفيد أن إظهار الإيمان وإبطان الكفر والشك لا يجعل صاحبه من المؤمنين. ثم يؤكد سبحانه وتعالى أنه أعد وجهز للكافرين جهنم وساءت مصيرا ﴿ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾ أي: ناراً شديدة الاشتعال، فهي النار العظيمة المتوقدة، التي قد اشتد لهبها. مما يفيد التحذير بالبيان الموضح لدلالة الإيمان، والتحذير من ضده، وهو الكفر.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن عظيم ملكه، وعظيم سلطانه، ومع ذلك فإنه غفور رحيم لمن تاب واستغفر.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

إن لله ربكم ملك السموات والأرض، فإنها له وحده وليس لغيره فيها شيء، ليتقرر بذلك بطلان الشرك، ونفي الشريك، مما يترتب عليه كمال توحيده، وإفراده بالألوهية، والربوبية، والعبادة. فإن لله سبحانه وتعالى جميع ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك كله، وله الخلق كله، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة. وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود بأنه له عَزَّ وجل، وإزالة جهل كل جاهل بها وعنها. فله وحده سبحانه وتعالى جميع ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة.

وقد شملت دلالة ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ كل ما ارتفع مما يراه الإنسان ومما غاب عنه فلا يراه. ومن ذلك الأفلاك والأجرام والسحاب وغيرها مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وشملت ﴿ وَٱلْأَرْضِ ﴾ جميع ما هو عليها أو ظاهر على سطحها، أو بداخلها، مما لا يراه الإنسان. فاستوعبت ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى مما يراه الإنسان وما لا يراه، بأن قَصَّرَت حواسه عن إدراكه ورؤيته، وهذا من عظيم البيان في كلام الرحمن.

فهو سبحانه وتعالى مخترع ومبدع هذا الكون، وبالتالي فإن الذي اخترع السماوات والأرض بهذه العظمة، وهذا الإبداع فإنه هو العظيم الذي لا عظيم غيره، وهو الذي يجب على العباد طاعته. وبما يفيد كمال ملكه وكمال قدرته، وسعة وعظمة ما خلق، فَدَلَّ ذلك على أن كل شيء عبد له، وتحت مشيئته وسلطانه سبحانه وتعالى، وأنه هو القاهر فوق عباده، مما يلزم طاعته وتوحيده، وإفراده بالعبادة، والخوف منه، ورجاء ما عنده عَزَّ في علاه.

وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود، بأنه له عَزَّ وجل، وإزالة جهل كل جاهل بها وعنها. فهو الذي له ما خلق من السماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة. فمن له هذا الملك وله هذه القدرة العظيمة، فلا يُعجزه سبحانه وتعالى بعث العباد، والحساب والجزاء. كما أن مَن هذا ملكه وعظمته، فليس له شريك في هذه العظمة.

ومع هذه العظمة وقوة السلطان وكمال القدرة فإنه سبحانه وتعالى ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ فيغفر لمن شاء ممن جاء بأسباب المغفرة، ويعذب من يشاء ممن جاء بالأسباب الموجبة للعذاب. فأثبت تبارك وتعالى لنفسه المغفرة لمن يشاء، والعذاب لمن يشاء. فتكون المغفرة لمن تاب وآمن، والعذاب لمن

استكبر وأصر على كفره. ثم إن الله تعالى بعلمه السابق يعلم بما سيكون عليه العبد، وبما سَيُقْدِمُ عليه من حُسن الخاتمة أو غيرها، فقد أسلم بعض ممن قاتل مدافعاً عن الشرك والمشركين، وصاداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. فقد أسلم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم. فرضي الله تعالى عنهم أجمعين. فإن لله تعالى الملك الكامل والعلم الشامل بخلقه، وبما سيكونون عليه في مستقبل أمرهم. فاللهم احفظنا بحفظك وتولنا فيمن توليت من عبادك الصالحين.

فمع عظمته وعظمة ملكه سبحانه وتعالى فإن ذلك لم يجعله يمنع مغفرته عن التائبين، فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فإن الله تعالى يقابل تقصير المقصرين بقبول توبة التائبين منهم، فيتوب ويغفر لمن تاب واستغفر وأناب ورجع إلى ربه تبارك وتعالى، فيسامحهم، وبالتالي يكرمهم بالمغفرة والمسامحة على سابق كفرهم، ومعاصيهم. وهي بشارة عظيمة لكل عاص لربه مهما كبرت أو صغرت المعصية، فإن ربكم متصف بمغفرة الذنوب وسترها، ومحوها، وأنه رحيم بعباده، بما شرع لهم، وبمغفرته للذنوب، فيغفر للمخطئ، ويرحمه، ويتجاوز عنه. لأنه سبحانه وتعالى متصف بالمغفرة والرحمة. وفي هذا دعوة للتوبة والرجوع إليه سبحانه وتعالى بالدخول في الإسلام، وكذلك تحفيز وتنشيط للاستغفار مما يقع من الخطأ والنسيان، بما يبين أن الله سبحانه وتعالى قد أراد بعباده الخير، وأنه ما أرسل الرسل وأنزل الكتب إلا رحمة بالعباد، ليتبعوا شرعه وفق ما شرع، فيحملوا الأمانة كما أراد عَزَّ وجل، لتتصحح مفاهيمهم وتستقيم أمورهم. وقد ورد بيان المغفرة والرحمة بأسلوب الإثبات الأزلي، فحرف ﴿ وَكَانَ ﴾ فعل ماض، مفاده أن المغفرة والرحمة صفة ثابتة لله تعالى، وليست حادثة. بل إنها صفة من صفاته الكريمة المتعاقبة والمتتالية. فعليكم بأن تطلبوها وتستقيموا وفق ما شرع. فالحمد لله رب العالمين على مغفرته ورحمته وفضله وهدايته.

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

فمن عظيم علم ربكم أنه يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم، بما سيقوله المتخلفون عن صلح الحديبية حال انطلاق الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون إلى تحصيل المغانم والمكاسب. فيقول عَزَّ وجل

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ سيطلب منك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم أولئك الذين تخلفوا عن الحديبية إذا انطلقتم إلى خيبر التي وعدكم ربكم بها، وتخصيصها لمن شهد الحديبية، سيقول أولئك المخلفون ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ دعونا نذهب معكم إلى خيبر، يريدون تغيير ما وعدكم الله تعالى به، من غنائم خيبر.

وفي هذا إعجاز بالإخبار بالخبر الذي سيكون قبل أن يكون ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ بيان يكشف مستقبل ما سيقوله الْمُخَلَّفون. وجعل صفة التخلف تسمية لهم ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ ومن دقائق البيان جعل قولهم عاماً وليس قاصراً على الرسول صلى الله عليه وسلم. بما يفيد أنهم سيتجهون بالطلب للرسول عليه الصلاة والسلام وإلى غيره ممن يتشفع لهم من الصحابة عند الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد عين تبارك وتعالى موعد وزمن قولهم بأنه ﴿ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ أي: سيكون قولهم هذا وقت وحال انطلاقكم إلى تحصيل الغنائم التي تأخذونها وتحوزونها من فتح خيبر. كما أن هذا إعجاز بالإخبار عما سيكون قبل أن يكون من الفتح. وهو أنكم ستحصلون على الغنائم، بما يفيد الجزم بتحقق النصر لكم على عدوكم. بل وجعل الغنائم مقطوع شأن تحصيلها ﴿ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ مغانم سوف تأخذونها. فالأخذ للغنائم أمر مَقطُوع به.

وهنا يخبر سبحانه عما سيطلبه الْمُخَلَّفون ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ اسمحوا لنا ودعونا أن نشهد معكم غزوة خيبر. ومن دقائق البيان أن قولهم يحمل الاستئذان ﴿ ذَرُونَا ﴾ ويحمل أنهم ليسوا أصل مع المؤمنين بقولهم ﴿ نَتَّبِعْكُمْ ﴾ على أنهم ليسوا أصل. بل مُضاف، يريدون أن يُضيفوا أنفسهم إلى معية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الذين شهدوا الحديبية، رضي الله عنهم. وبهذا الطلب يريدون أن يتغير حكم الله تعالى فيمن خصهم بغنائم خيبر ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ عن مُعَمَّرٍ عن رجل من أصحابه، عن مِقْسَمٍ، قال: لما وعدهم الله تعالى أن يفتح عليهم خيبر، وكان اللهُ قد وعَدَها مَن شهد الحديبية، ولم يعط أحداً

غيرهم منها شيئاً. ولما علم المنافقون أنها الغنيمة، قالوا ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ يقول: ما وعدهم(١) وإن الله تعالى لن يُخلف وعده عَزَّ وجل.

فَيُوجِّهُ اللهُ تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يجب أن يقوله لهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ نفي ونهي أن يأذن لهم الرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يصحبوهم. مؤكداً ذلك النهي بأنه أمر من الله تعالى في حقكم ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي: من قبل رجوعنا من الحديبية. بأن غنيمة خيبر هي لمن شهد الحديبية فقط، فليس لأحد غيرهم فيها نصيب. فهو من عالم الغيب الذي كشف حقيقتكم، وأظهر ما سيكون قبل أن يكون. ليكون ذلك إعجازاً في الخبر، وإعجازاً في تحققه، فيزداد الذين آمنوا إيماناً، ويزول شك المرتاب، ويغتاظ الذي في قلبه مرض وحسد، واستكبار.

ثم يخبر الله تعالى عما سَيَرُدُّ به الْمُخَلَّفون، فقال تعالى ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ ليس الأمر كما تقولون ﴿ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ فإن مرادكم الحسد لنا من أن نشاركم الغنيمة، فتريدون أن تستأثروا بها عنا. فهذا منتهى علمهم، الذي يدل على قوة جهلهم. وهذا من قوة فساد قلوبهم، إذ كان جوابهم نفي وإبطال لكلام الله تعالى، وإخبار الرسول لهم صلى الله عليه وسلم ومخاطبته بهذا الأسلوب، وبهذا المنطق السقيم. إذ أفاد حرف ﴿ بَلْ ﴾ إبطالهم وإنكارهم لصحة أن الله تعالى خص بها أهل الحديبية، وبجرأة من القول ﴿ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ فيرد الله تعالى عليهم بما يستحقون من الكشف عن حقيقتهم التي هم عليها، فيقول تبارك وتعالى ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ إن الأمر منهم ليس كما قالوا. فنفى سبحانه وتعالى صدق قولهم بحرف ﴿ بَلْ ﴾ ليس الأمر كذلك؟ كما يقولون. ثم كشف حقيقتهم ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فلا يعلمون من العلم إلا القليل، أي: فيما يخص معاشهم، وأطماعهم من زينة الحياة الدنيا. ولا يفهمون الإيمان، فإن قلوبهم مطموسة عن معرفته، وعن حقيقة ربهم، وما يجب عليهم تجاه دين ربهم، وما هو لهم في دين ربهم وشريعته الغراء. فلا يفقهون عن ربهم ما يتصحح به فهمهم. فلو كانوا يفهمون لأدركوا أن منعهم منها هو عقوبة لهم عما بدر منهم، ولدفعهم ذلك إلى الاستغفار والتوبة، والرجوع إلى الله تعالى. وأدركوا أن من يعصي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإن هناك عقوبة في الدنيا، وعقوبة في الآخرة. ولأيقظ ذلك قلوبهم من غفلتها. خاصة وأن بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكنهم لم ينتفعوا ويستثمروا نعمة الله تعالى، التي منها نعمة الرسالة.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٦٢/٢١)

وقد قصر البيان من الله تعالى علمهم على القلة ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ليدل على عظيم جهلهم. وبما يفيد أهمية العلم بالدين، وأن العلم القليل لا يرتقي بالإنسان لما يجب أن يكون عليه. وأفاد ذلك أن تأويل الحقائق سهل على أهل الجهل، والذين لا يرون إلا الدنيا وزينتها، وأنهم خالين من الإيمان، ومن فهم آيات الله تعالى المبثوثة في الكون، والمقروءة في القرآن العظيم.

ولكن من حلم الله تعالى ورحمته أن ترك لهم الفرصة فيما هو قادم إن أرادوا إصلاح شأنهم، فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهؤلاء الذين تخلفوا بقوله عزَّ وجل ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لهؤلاء الأعراب الذين تخلفوا عن الحديبية، ويطمعون في تحصيل الغنائم ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ ﴾ ستدعون للخروج في سبيل الله تعالى، لتجاهدوا قوماً ﴿ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أولي قوة شديدة ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ فإما يحصل منهم الإسلام أو تقاتلونهم ﴿ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ فإن أطعتم وصلح شأنكم يؤتكم الجنة في الآخرة. وينصركم ويؤتيكم الغنائم منهم في الدنيا. ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وإن توليتم وأعرضتم كما حصل منكم عام الحديبية يعذبكم بما تستحقون من العذاب الأليم.

وفي هذا معالجة كريمة بالترغيب والترهيب معاً من الرحمن الرحيم. فلم يغلق الباب أمامهم. مما يبين حكمة الله تعالى العظيمة في معالجة شؤون العباد، وأنه يحذرهم من أجل مصلحتهم، ويرغبهم من أجل نجاتهم، مما يبين قوة رحمته وسعتها، فلم يؤاخذهم فقط بما بدر منهم، بالرغم من ظنونهم وردودهم السيئة، مع تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإذا كان الله تعالى يتعامل مع عباده بهذا الحلم، وبهذه الرحمة، وهو ربهم، وهم عبيده، فما أحوج العباد إلى حُسن التعامل فيما بينهم، بأن لا يفصلوا ويقطعوا فيما بينهم لمجرد الاختلاف. فهو دين الرحمة، ودين الترغيب في الخير، والانضمام لقوافل الخير. بل ويعلم العباد منهجية التعامل، وقواعده وأسسه.

كما أن هذا الإخبار من الله تعالى بما سيكون آية عظيمة ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ فهذا البيان إخبار بما سيكون من قادم الأيام قبل أن

يكون الأمر والشأن. ومن دقائق البيان أنه سبحانه وتعالى لم يسم ويعين هؤلاء القوم الذين سَيُدعَون لمقاتلتهم أو يسلمون ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ وقد اختلف المفسرون في المقصود بهم. وأجود ما قيل هو قول ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، حيث قال رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال: إن الله تعالى أخبر عن هؤلاء الْمُخَلَّفين من الإعراب، أنهم سيدعون إلى قتال قوم أولي بأس في القتال، ونجدة في الحرب، ولم يُوضَع لنا الدليل من خبر ولا عقل أن المعني بذلك هوازن، ولا بنو حنيفة، ولا فارس، ولا الروم، ولا أعيان بأعينهم، وجائز أن يكون عني بذلك بعض هذه الأجناس، وجائز أن يكون عُني بهم غيرهم. ولا قول فيه أصح من أن يُقال كما قال الله جَلَّ ثناؤه: بأنهم ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾[1] فتؤخذ الدلالة كما هي من غير قصرها على فئة معينة. ولله تعالى الحكمة في ذلك.

ثم من رحمته وعنايته تبارك وتعالى أن أعذر بالتخصيص المرضى والعميان، والعرجان من الجهاد، بحمل السلاح والقتال. فقال تعالى ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ رفع الله تعالى الحرج عن هؤلاء المذكورين بأعذارهم، ممن كان فاقداً لبصره، ومن كان أعرجاً، ومن كان مريضاً، فليس على هؤلاء حرج في تركهم الجهاد في سبيل الله تعالى. وهذا من عظيم رحمته سبحانه وتعالى، بل أفرد كل واحد منهم بالتنصيص والتخصيص. مما يُعَلِّم المؤمنين أهمية التخصيص عند التكليف في أي شأن، وعند تحرير الأنظمة واللوائح التي تدخل في المصالح المرسلة. كما يفيد هذا وجوب إعذار من ثبت عذره، وألا يلام. وألا يكلف أحد إلا بقدر وسعه وطاقته.

ثم بعد ذلك يقرر سبحانه وتعالى قاعدة عامة للطاعة التي يدخل بها العباد جناته، وأن كل أحد أعرف بنفسه، والله تعالى لا تخفى عليه خافية من كل أحد، وفي كل شأن، مهما كان خافياً، ومهما كان قدره ونوعه، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فمن يطيع الله ربه، ويطيع رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ فإن الله تعالى يدخل من لزم طاعته سبحانه وتعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنه يدخله الجنة ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ ﴾ فليست جنة بل جنات متعددة، ثم وصفها سبحانه وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ تَجْرِي مِن

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٦٢/٢١)

﴿تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ قد اتصفت تلك الجنات بكثرة الأنهار. وهي البساتين التي تجري من خلالها الأنهار، في جريان متدفق؛ ومستمر، لا ينقطع، ولا يضعف. فتجري من أسافلها، لتمر في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وبين أشجارها وقصورها، من غير انقطاع. وقد ورد البيان للأنهار بصيغة الجمع، ليدل على كثرتها، ودوام تدفقها من تحت تلك المباني، فيزداد بها المؤمن سعادة وبهجة وسروراً.

وأما من يتولى عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله، فإن له ما يستحق من العذاب المؤلم ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فمن أعرض فإن الله تعالى يعذبه العذاب الأليم الذي استحقه واستوجبه على نفسه بتوليه عن الاستجابة لربه ولرسوله صلى الله عليه وسلم. بما يبين أن كل إنسان مسؤول عن نفسه، وأن طريق الجنة ظاهر معروف، قد عَرَّفَه الله تعالى لكم أيها الناس، وأن طريق العذاب قد عَرَّفَه لكم كذلك. فجمع لهم بين الترغيب وبين الترهيب، ليكون الجزاء عدلاً وفاقاً.

ومن دقائق البيان الكريم أنه لا تتحقق الطاعة إلا بالامتثال لله سبحانه وتعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، مما يفيد تعاضد القرآن والسنة النبوية، فمن فَرَّق بينهما في العمل والتطبيق فقد خاب وخسر. فإذا تم الإيمان بذلك فقد تم الإيمان بما جاء به عن ربه تبارك وتعالى، وأوله القرآن العظيم، والسنة النبوية المطهرة. فقد جعل الله سبحانه وتعالى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم مقترنة بطاعته، فجمع بينهما بما يمنع ويصد التضاد والخلاف. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فهما شرط لدخول الجنة ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ فلا يتحقق ذلك إلا بكمال الطاعة.

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

يخبر الله تعالى عن رضاه على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، فقال عزَّ وجل ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ

﴿ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ لقد مدح الله تعالى بمنه ورحمته المؤمنين في هذه البيعة مدحاً جليلاً وعظيما، فأصبح تاجاً لهم في حياتهم الدنيا وفي الآخرة. وقد بدأ بيانها بلام القسم، الذي تصدر حرف التحقيق والتأكيد ﴿لَّقَدۡ﴾ لقد تحقق وثبت رضى الله تعالى ﴿عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ووصفهم بأعظم الوصف، وهو الإيمان، وهذه تزكية وشهادة من الله تعالى لأولئك المؤمنين، حين حصلت منهم البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ حين بايعوك تحت الشجرة، فحدد سبحانه وتعالى مكان بيعتهم بأنها حدثت ﴿تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ لبيان حالهم، ولبيان دقة الخبر ومكانه، ومعية الله تعالى لهم. وأنه لا تخفى عليه سبحانه وتعالى خافية.

لقد رضي الله عنهم حين بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديبية على مناجزة قريش الحرب، وأن لا يفروا، ولا يتولوا، وقد تم تسميتها ببيعة الرضوان، لأن الله تعالى رضي عنهم. وكان عددهم ألف وأربعمائة. فحين أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابي الجليل عثمان بن عفان إلى قريش، ليخبرهم بأن مجيئهم هو للعمرة. ثم ورد خبر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بأن عثمان رضي الله عنه قد قُتِل، فقال عليه الصلاة والسلام (لا نبرح حتى نناجز القوم) ودعا الناس للبيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت شجرة من السمرة. قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس، ولم يتخلف إلا الجد بن قيس، أخو بني سَلمة. وكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته، قد اختبأ إليها. ثم أتى الخبر للرسول صلى الله عليه وسلم أن الذي ذُكِر من أمر عثمان رضي الله عنه باطل[١] لا صحة له.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن دقة علمه حتى لما في قلوبهم ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ فعلم ربك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بما في قلوب أصحابك من الصدق والوفاء، وهم تحت الشجرة يبايعونك على مناجزة قريش الحرب، وأن لا يفروا ويتولوا. فامتن عليهم ربك بالطمأنينة ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهي الطمأنينة التي تحدث في القلب، ويظهر أثرها على تصرفات الإنسان المبنية على الهدوء والطمأنينة والسكينة، والتي يزول بها الهلع والخوف، وتظهر بها الشجاعة والإقدام. مما يفيد أن من أعظم إنعام الله تعالى هو أن يعطي العبد السكينة، التي تجعله في طمأنينة في جميع أحواله، فلا يبتئس من قِلٍ، ولا يكون جَشِعَاً في طلب مراده، ولا يخاف من حوادث الأيام، لأن قلبه مطمئن بالتوكل على الله سبحانه وتعالى. وفي ربط السكينة بقلوب المؤمنين دليل على قوة علاقتها بالإيمان. مما يتطلب معالجة الإنسان لشأنه بالإيمان، وصلاح أعماله، مع الدعاء بأن يمنحه الله تعالى السكينة. فإن مَن تَحَصَّل عليها، فقد تَحَصَّلَ على السعادة برمتها.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٢٧٢-٢٧٣)

ثم زادهم ربهم عَزَّ وجل من فضله، بأن وعدهم بالفتح القريب ﴿ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾ أي: ليس ببعيد الزمن. والفتح هو أكبر من النصر، إذ تتجاوز دلالته النصر إلى الدخول والحكم والسيطرة. لأن الفتح أبلغ في تجاوزه النصر إلى التمكن من الحكم والسيطرة. فالنصر قد يقتصر على كسب المعركة، والنكاية بالعدو، ودحره وهزيمته. وهو ما جرى من الصلح مع قريش، وما تلاه من فتح خيبر، وتخصيص غنائمها لأهل الحديبية، ثم ما أعقب ذلك من فتح مكة، ثم فتح سائر البلدان التي امتن الله تعالى عليهم بفتحها. فحصل لهم العز والرفعة والمكانة العالية. مما يبين أهمية الصدق في الدين مع الله سبحانه وتعالى، وأن من يصدق مع الله عَزَّ وجل، يعينه، ويعوضه خيراً، ويوفقه ويسدده، ومن ذلك تحصيل السكينة، وتحصيل الرزق وعموم الفضل من الله تعالى في الدنيا وفي الآخرة الجنة. ونسأل الله تعالى الصدق والثبات على الطاعة لربنا جَلَّ جلاله، والسكينة والجنة. ومرافقة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والمسلمين أجمعين.

ثم يزيد الله تعالى من كرمه على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين الذين زَكَّى الله تعالى بيعتهم لرسوله عليه الصلاة والسلام بالحديبية، تحت الشجرة. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ ومع هذا النصر والفتح العظيم يؤتيكم مغانم عظيمة، قد وصفها الله تبارك وتعالى بالكثرة، فيحصلون عليها، وبالفعل قد حصلوا عليها من فتح خيبر كما وعدهم الله جَلَّ في علاه. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: فوصفت بالكثرة ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ ﴾ لتعدد أنواعها، وهي أول المغانم التي كانت فيها الحوائط. وفائدة وصف المغانم بجملة ﴿ يَأۡخُذُونَهَا ﴾ تحقيق حصول فائدة هذا الوعد لجميع أهل البيعة، قبل أن يقع بالفعل. ففيه زيادة تحقيق، لكون الفتح قريباً، وبشارة لهم، بأنهم لا يُهلك منهم أحد قبل رؤية هذا الفتح[١] وهذه آية وبرهان ودليل على نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن هذا الدين هو دين الله سبحانه وتعالى.

ثم يختم الله تعالى الآية بما يناسبها من كمال أسمائه وصفاته العظيمة الجليلة. فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ فلربكم كمال العزة والحكمة. فيخبر جَلَّ شأنه عن عظيم عزته وحكمته. فهو ﴿ عَزِيزًا ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة والسلطان. والصفة الثانية: ﴿ حَكِيمٗا ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٣٦/١٠)

والتقدير. فربكم حكيم فيما يأمر به، وينهى عنه. فإن أمره ونهيه عن علم وعزة وحكمة، مما يستوجب الأخذ والتمسك به. وبالتالي فإن من كان له كمال العزة، وجبت طاعته والخوف من عذابه ونكايته بمن يعصيه.

وقد وردت العزة والحكمة بصيغة المبالغة التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ إضافة إلى أن تقدم البيان حرف ﴿ وَكَانَ ﴾ لإفادة: أن الله تعالى عزيز حكيم منذ الأزل، فهما صفتان عظيمتنا جليلتان لله عَزَّ في علاه. ومن فوائد دلالة ﴿ وَكَانَ ﴾ أنها تعطي اتصال الزمن من غير انقطاع بعلمه وحكمته تبارك وتعالى، لتعطي معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة التي لا تنقطع، سابقاً ولاحقاً.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد من تفاصيل الغنائم فيما يستقبلون من أيامهم. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ فإن ربكم قد وعدكم مغانم متصفة بالكثرة والتعدد، ستنالونها بأخذكم وتحصيلكم لها. أي: بالظفر بها مع النصر ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ وذلك في أوقاتها التي قدرها ربكم سبحانه وتعالى، فهو وعد عام لما هو قادم في مستقبل أيام الذين بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في بيعة الرضوان. ثم خص مغانم فتح خيبر بأنه الفتح المستعجل القريب ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ أي: غنيمة خيبر. فعن مجاهد وعن قتادة رحمها الله تعالى، قالا: عَجَّل لكم خيبر[١] ولما أن مغانم خيبر خاصة بأهل بيعة الرضوان، فيفيد الوعد العام من الله تعالى ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ أنها على إطلاقها، لهم ولمن يشارك معهم في الفتوحات القادمة. قال مجاهد رحمه الله تعالى: هي جميع المغانم إلى اليوم ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ يعني فتح خيبر، وعن ابن عباس أنها صلح الحديبية[٢] لأن المغانم المستقبلية لا حدود لها زمناً، ولا تعيناً ولا عدداً محدداً من المؤمنين. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: في هذا وعد منه سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين بما سيفتحه عليهم من الغنائم إلى يوم القيامة، يأخذونها في أوقاتها التي قدر وقوعها فيها ﴿ فَعَجَّلَ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٢٨٠-٢٨١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢٠٦)

﴿لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ يعني: خيبر[١] فالمعجل بها هي غنائم خيبر ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ الخاصة بأهل بيعة الرضوان، وما بعد ذلك يفيد العموم.

ثم من امتنان الله تعالى على عباده المؤمنين أن منع أيدي الأعداء من أن تنالهم. فقال تبارك وتعالى ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ فمن آياته وامتنانه جَلَّ شأنه أن منع وحبس أيدي الأعداء من أن تنال منكم مبتغاهم من الظفر بكم ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ قيل: أنهم اليهود، هَمُّوا أن يقتالوا أولاد المسلمين الذين تركوهم في المدينة وذهبوا إلى مكة. وقيل: عني بذلك قريش، إذ حبسهم الله تعالى عنهم. فكفهم بالصلح، وقيل: أنهم أسد وقطفان، جاؤوا لينصروا أهل خيبر، فقذف الله في قلوبهم الرعب، فانصرفوا عنهم[٢] وهذه آية من آيات الله تعالى بما سيكون من مستقبلهم. مما يُوجب التصديق والإيمان.

وقد أشار تبارك وتعالى إلى أن ما وَعَدَ به وتحقق آية وبرهان، فقال جَلَّ شأنه ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهذا الكف، وهذه الغنائم العاجلة والآجلة دليل وبرهان على صدق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأن هذا القرآن كلام الله تعالى، وأنه وحي لنبيه ورسوله عليه الصلاة والسلام، وأنه لا ينطق عن الهوى، بل بما ينزل عليه من الوحي. وأن هذا الدين حق من عند الله ربكم سبحانه وتعالى. بل ليكون ذلك آية إلى يوم القيامة، يتناقله الخلف عن السلف. فسبحان الله تعالى العظيم. فهي آية لكل مؤمن. ثم يذكر تبارك وتعالى فضل هذه الآية والحجة والبرهان عليهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بتلك الآية هداية وتثبيتاً على منهجه المستقيم، الذي يتحقق به الفوز في الدنيا والآخرة. فالحمد لله رب العالمين.

ثم يذكر تبارك وتعالى المغانم الأخرى التي وعد بها المؤمنين، فيقول جَلَّ جلاله ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ فكما جعل لكم ربكم هذه المغانم الموعودون بها قريباً، فإنه كذلك جعل لكم مغانم أخرى ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ أي: مغانم غير المغانم العاجلة، فتأتيكم متتالية.

ثم يبين جَلَّ شأنه أن الذي لم تقدروا عليه من الغنائم اليوم سوف تأخذونه فيما هو قادم من الأيام ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ لم تقدروا عليها حين هذا البيان من ربكم، وهي الفتوحات التي فتحها الله

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥/٥١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٢٨٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/١٦٨)

تعالى من بعد ذلك. وبالتالي فهو أمر متحقق لكم، وبيان لمستقبلهم، ومستقبل رسوله صلى الله عليه وسلم، ودينه فيما هو قادم، بأنه أمر مقطوع ومجزوم به. بما يفيد فاطمئنوا على ما سيكون لكم في قادم الأيام. مما يبين أن قدرتكم عاجزة عنها اليوم ولكن بقدرة الله تعالى يمكنكم مما يريد تمكينكم منه. مما يغرس في المؤمن أن الأسباب في قبضة الله تعالى، يصرفها كيف يشاء، فأطيعوا الله تعالى، واستعينوا به، وتوكلوا عليه، ولا تغتروا بالأسباب، مهما كانت من الكثرة أو القلة. ليكون ذلك درس للمؤمنين في كل وقت وحين، وفي كل شأن يطلبونه ويقصدونه. وأن الأمور قد لا تتحقق حين مطلبها، ولكن تتحقق في وقتها المناسب لها، بما يعلمه ويقرره الله سبحانه وتعالى.

ثم يخبرهم سبحانه وتعالى بأنه جَلَّ في علاه قد أحاط بها قَدَرَاً قَدَّرَهُ، وعلماً يعلمه، وقدرة وسلطانا، فقال عَزَّ وجل ﴿ قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ علماً وتقديراً، وقدرة وقضاء، بأنها ستكون من فتوحاتكم، ومغانمكم.

ثم يبين عَزَّ وجل كمال مشيئته وقدرته، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴾ فيقرر سبحانه وتعالى لهم ولجميع العباد بأنه عَزَّ وجل لا يعجزه شيء، وأن كل شيء تحت قدرته وسلطانه وقهره، ومن ذلك نصرهم وتمكينهم بالفتوحات والمغانم، وفي كل شأن من شؤونهم. فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، بما يفيد التطمين، والترغيب في طاعته، وتعظيم شأن ربهم. وزيادة إيمانهم. وكذلك التحذير من معصيته، فإن قدرته عَزَّ وجل تشمل كل شيء، فاطلبوا عونه بتمكينكم، ولا تيأسوا، واحذروا مخالفته سبحانه وتعالى.

وقد ورد كمال القدرة لله تعالى بصيغة المبالغة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴾ التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله. كما استهل البيان بحرف ﴿ وَكَانَ ﴾ لإفادة: أن الله تعالى على كل شيء قدير منذ الأزل، فهما صفتان عظيمتنا جليلتان لله عَزَّ في علاه. ومن فوائد دلالة ﴿ وَكَانَ ﴾ أنها تعطي اتصال الزمن من غير انقطاع بكمال قدرته تبارك وتعالى، لتعطي معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة التي لا تنقطع، سابقاً ولاحقاً.

ثم يتدرج التوجيه الكريم إلى بيان قدرته على هزيمة أعدائهم، بالرغم من كثرتهم. فيقول جَلَّ جلاله ﴿ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾ فلو أن الكافرين قاتلوكم حين كنتم في الحديبية لهزمهم الله تعالى، وجعلهم يُوَلُّون الأدبار، ولا يجدون من يواليهم ويناصرهم على قتالكم. فحرف ﴿ وَلَوۡ ﴾ حرف شرط، يفيد مع دلالة السياق الامتناع فيما لو قاتلوكم من تحقيق النصر عليكم ﴿ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وهي شاملة لكل الكفار، ولكن باعتبار أن السورة نزلت حين العودة إلى المدينة من الحديبية، أفاد بأنه لو قاتلكم المشركون بدلاً من المصالحة والمعاهدة التي حصلت لولوا الأدبار منهزمين. فأفادت العموم

باعتبار مجرى السياق، وأفادت الخصوص باعتبار الموقف. فلو حصل منهم القتال لكان شأنهم هو ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ لأعطوكم ظهورهم، هرباً منكم، وذلك تعبيراً وكناية عن هزيمتهم، وسرعة رجوعهم إلى حيث أتوا، من شدة الرعب الذي ينزله الله تعالى في قلوبهم. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ ثم حتى لو بحثوا بعد هروبهم عن من يعينهم من القبائل الأخرى، فلن يجدوا من ينصرهم. إذ أفادت ﴿ثُمَّ﴾ الترتيب، بأنهم لن يجدوا من يعينهم بعد أن يولوكم أدبارهم. بما يعني أنهم لو بحثوا عن معين وناصر، فلن يجدوا. بما يفيد كمال قدرة الله تعالى. بأن يحبس عنهم كل عون. ولكن الله تعالى بحكمته جعل الصلح بين الفريقين، بكف الأيدي عن الاقتتال.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأن هذا الشأن الذي أخبر به، وهذا التدبير الذي تعيشونه، هو سنة ربكم مع من سبقكم من المؤمنين مع أنبيائهم. فقال تعالى ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ فهو منهج ونهج من الله تعالى في الأمم التي قد مضت فيمن سبق. بأنه عَزَّ وجل ينصر أولياءه على أعدائهم. ثم يؤكد سبحانه وتعالى بثبوت سنته التي تُحِقُ الحق، وتَهزِمُ الباطل وتُدحِرُهُ، فيقول تبارك وتعالى ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ فلن تكون لسنته عَزَّ وجل وحكمته وتقديره تغيير أو تبديل. بما يفيد أنه طالما أنكم على الحق طائعين، فإن نصركم متحقق، ولا انتصار للكفار عليكم أبداً. ليعطي هذا البيان من الله تعالى الطمأنينة، والمثابرة على لزوم طاعته، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. وهي آية ودلالة إعجاز باقية وسائرة إلى أن تفنى الأرض ومن عليها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٢٦﴾﴾

يخبر الله سبحانه وتعالى بأنه هو الذي دبر منعهم عن مقاتلتكم، بكيده وتدبيره سبحانه وتعالى، بما يقذفه في قلوب العباد، فالجميع تحت سلطانه وقهره. فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ فربكم أيها المؤمنون هو الذي بفضله وقدرته منع أيدي المشركين عن أن تصل إليكم بسوء، وكذلك كف ربكم أيديكم عن المشركين بحكمته وتدبيره، وذلك عندما دخل نفر من المسلمين ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ حين تسلل نفر من المشركين يريدون غِرّة للهجوم على المسلمين في الحديبية. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً من المؤمنين، فأسر المسلمون أولئك الكفرة، وعندما أتوا بهم إلى رسول صلى الله عليه وسلم، امتن عليهم فأطلق سراحهم. ذكر ذلك أهل التفسير ومنهم الطبري[1] فبتدبير الله تعالى منع القتل والاقتتال بين المسلمين وبين المشركين ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ من بعد أن مكنكم منهم بأسرهم. مما يفيد أن الله تعالى بفضله هو الذي ييسر للمؤمنين الظفر بأولئك، ولولا فضله تبارك وتعالى لَمَا تمكنوا منهم. وهو الذي جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يمتن عليهم بإطلاق سراحهم، فهو فضل امتنان منه عَزَّ وجل.

ثم يخبر جَلَّ في علاه عن كمال علمه عَزَّ وجل ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ فإن ربكم عليم ومحيط بكم وبهم. فكان سبحانه وتعالى بجميع أعمالهم عليم بصير، فلا يخفى عليه منكم شيء، فيدبر الأمر والشأن بحكمته الجليلة. فهو بصير بكم، وبما يكون منكم، فلا يخفى عليه منكم شيء. فيثبت معيته عَزَّ وجل لهم، وكمال علمه بجميع أعمالهم.

وقد تضمن قوله تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ تخصيصهم بالرغم من شمولية غيرهم بعلمه عَزَّ في علاه، لإفادة مزيد العناية بالتخصيص. فربكم بصير بأعمالكم وأقوالكم، وبالتالي مراقب ما يكون منكم ومنهم، فلا يخفى عن علمه شيء مما يكون منكم، ومنهم. وقد ورد البيان الرقابي بدقة عالية، إذ بدأها سبحانه وتعالى بحرف ﴿ وَكَانَ ﴾ التي أعطت الاستباق للحدث، فليس عنايته تلك اللحظة، بل من غير انقطاع، لتعطي معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة التي لا تنقطع، لا سابقاً ولاحقاً. فإني أراكم وأسمعكم، وأعلم ما أنتم فيه من أمر. مما يفيد الرقابة والعناية الربانية لكم، كما أنها وردت على سبيل التخصيص ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ أي: بكم أنتم، بالرغم من أن الله تعالى بصير بكل الخلق، ولكن في التخصيص زيادة عناية

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨٨/٢١) ملخص.

وتطمين للمؤمنين، وإظهار الامتنان مع كمال القدرة والرعاية الكريمة لكم. وورد العلم بالعمل بصيغة الجمع ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بمعنى أعلم ما تعملون جميعاً أيها الْمُخَاطَبُون، وليس بعضكم دون بعض، وليس شيئاً مما تعملون دون شيء، بل إحاطة كاملة شاملة.

ثم ينتقل التوجيه الكريم في تدرج مسبوك إلى بيان الأمور الباعثة لمقاتلة المشركين في مكة، ودواعي ذلك وأسبابه، فيقول تبارك وتعالى ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ يبين الله سبحانه وتعالى أسباب ودواعي قتال مشركي مكة، وذلك بإظهار ما كان منهم مع رسوله صلى الله عليه وسلم ومع المؤمنين، فاستحقوا بذلك القتال الذي يتعذبون به من شدته، ولكن لحكمته سبحانه وتعالى كف أيدي الجميع عنه، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ ﴾ هم الذين يستحقون القتال الذي يذوقون به أشد العذاب. وأشار إليهم بضمير الغائب مع اسم الموصول ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ ﴾ لإفادة تنبيه غيرهم عنهم، وإظهار شناعة ما كان منهم بالحصر لهم، بأنهم هم لا غيرهم الذي حصل منهم ما سيذكره عنهم سبحانه وتعالى.

وأن أول هذه الأسباب هو الكفر ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ فلم يؤمنوا بما جاءهم من الحق من ربهم سبحانه وتعالى. وعيرهم بصفة الكفر التي تعني الجحود والإنكار بالستر والتغطية، والذي يعني في الاصطلاح أن الكفر: هو ضد الإيمان، وما يتضمنه من الجحود لنعمة الله تعالى المناقض للتصديق. وثاني الأسباب هو صد المسلمين عن بيته العتيق ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ومنعوكم عن دخول المسجد الحرام، وأنتم أهله والأحق به. فمنعوكم من دخول المسجد الحرام حين أحرم النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه للعمرة في عام الحديبية. مما يُظهر عناد وكبرياء المشركين، حتى منعوهم من دخول مكة وهم قاصدون العبادة وليس القتال.

وثالث تلك الأسباب الموجبة لقتالهم هو منعهم دخول الهدي للحرم، فقال تعالى ﴿ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا ﴾ أي: موقوفاً ومجموعاً، ومحبوساً وملازماً للمكث في مكانه عن ﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ أي: محل نحره. فصدوا ومنعوا الهدي من أن يصل إلى محله، الذي يجب أن يكون فيه. مما يفيد شدة جُرمهم. فمنعوا بُلُوغَهُ مكة،

لشدة بغيهم وتكبرهم وتجبرهم. وقد كان الهدي سبعين بدنة. وذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى قول الصحابيين الجليلين، الْمِسْوَرِ بن مَخْرَمَة، ومروان ابن الحكم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ساق معه حين خرج إلى مكة في سفرته تلك سبعين بدنة[١] لأنه عليه الصلاة والسلام أراد زيارة البيت، ولم يرد القتال. وأراد ذبح ما أهدوه عند الحرم.

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وفي هذا تعيير للمشركين بالمذمة التي أتوا بها، وهي: صد المسلمين عن المسجد الحرام، وصد الهدي عن أن يبلغ به إلى أهله، فإنها سَبَّة لهم بين العرب، وهم أولى الناس بالحفاوة بمن يعتمرون، وهم يزعمون أنهم أهل حرم الله تعالى[٢] وفي هذا ما يُعلن ويُشهر موقفهم الذميم بين بقية العرب، وموقف المسلمين الشريف والحكيم، ويزيد من حفاوة الناس بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين. مما يبين أن بعض المواقف قد تصنع الخير بمردودها وصداها.

وبعد أن ذكر تبارك وتعالى الأسباب الموجبة لقتالهم واستحقاقهم لذلك، يذكر بعده عَزَّ وجل السبب المتعلق بالامتناع عن قتالهم ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ وبدأ البيان بحرف ﴿ وَلَوْلَا ﴾ التي أفادت امتناع قتال المشركين، والتهيئة لمعرفة سبب هذا المنع، وهو أن هناك بين أظهر المشركين رجال مؤمنين، ونساء مؤمنات، وهم المستضعفون الذين يعيشون سط الكفار بمكة، كسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، وأبي جندل بن سهيل، وأشباههم[٣] فلولا أنهم بين أظهر أولئك الكفرة وأنتم ﴿ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ ﴾ أي: أن تصيبوهم بأذى، من القتل والإهلاك والضرر ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ ﴾ أي: يصيبكم بسببهم ما تكرهون.

ومن بلاغة الدلالة أن ورد التعدي عليهم بدلالة الوطء ﴿ أَن تَطَـُٔوهُمْ ﴾ التي تعطي دلالة القوة بالتنقل بينهم بالإهلاك لهم بالقتل والإبادة التي تتجاوز التفنيد لهم عن غيرهم. مما يدل على قوة التمكن حتى أنكم تطؤونهم بخيلكم ورَجِلِكم فيحصل بذلك ما لا تريدون وتحبون، وهي ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ ﴾ أي: بسببهم. فيلحقكم بوطئكم لهم معرة ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ ﴾ أي: إثم وغرامة. اختاره ابن كثير[٤] وقاله

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٩٢/٢١).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٤٥/١٠)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٨/١٦).

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٠٨/٤).

ابن زيد. وقيل غُرم الدية، قاله ابن إسحاق، وقيل كفارة قتل الخطأ، قاله ابن السائب. وقيل: عيب بقتل من هو على دينكم، حكاه جماعة من المفسرين[1] فتقع هذه المعرة منكم ﴿ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ﴾ بغير قصد، ومعرفة منكم بهم. وفي هذا ما يفتح أذهان المؤمنين إلى التطلع لمقاتلتهم مستقبلاً، وأن الله تعالى ناصرهم عليهم، حينما يظهر ويخرج المؤمنون من بين أظهر المشركين. لأن هذا الصد والمنع الذي حصل من المشركين للمؤمنين عن عمرتهم إنما يزيد من حنق وبغض المسلمين لهم، وبالتالي تتهيأ النفوس لفتح مكة. مما يفيد أن التهيئة والتدرج من عوامل تحقيق الأهداف. كما يفيد ذلك ويبين عظيم حلم الله تعالى، ومراعاة السنن الكونية في الانتقال من طور إلى طور، والتوسع بالتدريج المتتالي. ويقاس على ذلك الكثير من أمور الحياة المختلفة لمن تدبره.

فلولا ذلك لمكنكم ربكم منهم بما يستحقون من القتل والأسر، لقاء كفرهم، وصدهم لكم عن المسجد الحرام، ومنع الهدي من أن يصل إلى الحرم. ولكن بحكمته وعلمه عَزَّ وجل كَفَّ أيدي الجميع عن بعضهم البعض. مما يدل على عظيم حكمة الله تعالى فيما يمنع، وفيما يعطي ويحقق. ليعطي درساً عاماً بأن كل ما يمنعه الله تعالى هو خير للمؤمن، وكل تيسير هو خير للمؤمن، سواء علم الحكمة أو لم يعلمها. ليغرس بذلك الرضا بأقدار الله عَزَّ وجل. كما أفاد هذا المنع تحريز الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم من أن يقعوا فيما لا يريدون من قتل المؤمنين المستضعفين والمتخفين بإسلامهم. فصانهم الله تعالى بحكمته وفضله، وبجميل تدبيره عَزَّ وجل. وليتعلم المؤمن أهمية الاحتراز من الوقوع في الإثم، وأن يتحوط لذلك. وأن يدرك منزلة المؤمن عند ربه، وحرمة دم المؤمن.

والسبب الآخر من منع الاقتتال: متعلق بمستقبل من اختارهم الله سبحانه وتعالى للدخول في الإسلام من المشركين، فقال عَزَّ وجل ﴿ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ليُدخِل الله تعالى بفضله ومَنِّه ﴿ فِي رَحۡمَتِهِۦ ﴾ أي: في الإسلام من أهل مكة من شاء أن يختارهم، لعلمه بهم. وفي تسميته ذلك بالرحمة، ما يعني ويفيد أن الإسلام رحمة لمن أسلم، بما يكون عليه في الدنيا من منهج الرحمة، وما يكون عليه في الآخرة من دخول الجنة. ثم جعل تبارك إسلامهم واختيارهم بفضل منه عليهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ فإدخالهم هو هداية وتوفيق لمن اختارهم تبارك وتعالى ﴿ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ أي: من يريد الله تعالى ويختاره منهم، فيصبحوا بكرمه من أهل رحمته. مما يبين أنه سبحانه وتعالى يصطفي من عباده من يشاء، لعلمه العظيم بهم عَزَّ وجل. وقد أسلم بعضهم من بعد الصلح، ومنهم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة رضي الله عنهم. فتحقق مراد الله تعالى كما أخبر. قال الزهري: وقد دخل في تيك السنتين مِثلَ مَنْ كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر، قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧٠/٧).

خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، في قول جابر بن عبد الله. ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[1] مما يبين عظيم علم الله تعالى، ومراده، وكرمه. فلا يمنع ولا يؤخر إلا لحكمة عظيمة، مما يربي في المؤمن الاستسلام لقضاء الله تعالى وقدره، فيما يحب ويكره. فقضاء الله تعالى هو الخير المحض.

ثم يخبر جَلَّ جلاله عن السبب والعلة التي يتحقق بها القتال، وهي ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ أي: لو تميز المؤمنون عن الكافرين تميزاً يُظهرهم عن الكافرين ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ لعذبنا الكافرين من أهل مكة بالقتل والأسر، وذلك بتسليطكم عليهم، وتمكينكم من إيقاع العذاب الأليم بهم، من القتل والجرح والأسر، والنكاية بهم. ولكن ليس هناك ما يميز ويظهر المؤمنين عنهم، فيحصل القتل لهم كغيرهم من المشركين. فعن جنيد بن سبيع رضي الله عنه قال: قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً. وكنا تسعة نفر، سبعة رجال وامرأتين[2] وهذا على حَدِّ علمه رضي الله عنه ذلك الوقت، وقد يكون العدد أكثر مما لا يعرفهم، بسبب تخفيهم بإسلامهم عن المشركين، ولذلك كَثُر الذين دخلوا في الإسلام خلال السنتين التاليتين لصلح الحديبية، كما سبق بيانه آنفاً.

مما يبين أهمية درأ المفاسد، وكذلك بيان منزلة المؤمنين، وحرمة دمائهم من غير موجب بحد من حدود الله تعالى. فقد جعل اللهُ تعالى دماءهم مانعة من مقاتلة المشركين بالرغم من قوة الأسباب، وقدرة الله تعالى عليهم من تمكين المؤمنين من الكافرين. ليتعلم المؤمن علماً عظيماً: كوجوب درأ المفاسد، وحُرمة دماء المسلمين من غير حق. ويتعلمون الصبر، ومنهج إدارة المواقف، وإدارة تصرفاتهم وشؤونهم مع غيرهم، وما يجب أن يحذروا منه، وأن الأمور لا تُدار بالهوى وحب الزعامة، بل بالحكمة، وبالاقتدار، وترتيب الأولويات، وأن درء المفاسد مُقَدَّم على جلب المصالح.

ثم يخبر الله تعالى ويكشف عما كان عليه أولئك المشركين من الجهل الذي استولى على قلوبهم وتفكيرهم حتى صدوكم بغير وجه حق عن المسجد الحرام، فقال تعالى ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ إن الذين صدوكم عن المسجد الحرام بغير حق، وأنتم معتمرون مسالمون، فإنهم قد جعلوا في قلوبهم ما يمنعهم من قبول الحق من ربهم، حتى صَدُّوكُم عن المسجد الحرام بسبب ما في قلوبهم من حمية الجاهلية ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (٣/٣٣٦-٣٣٧).خالد الحازمي، الفوائد السنية من السيرة النبوية، ص (٤٠٢-٤٠٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢٠٨).

﴿ ٱلۡحَمِيَّةَ ﴾ أي: الأنفة من قبول الحق، بالتكبر والاستعلاء والغرور. وقد نسب الله تبارك وتعالى الجعل منهم لأنفسهم ﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ هم الذين جعلوا ذلك في قلوبهم من الاستعلاء، بما يفيد أنه اصطناع منهم لأنفسهم. ثم وصف سبحانه وتعالى هذه الحمية بما يكشف حقيقتها، بأنها ﴿ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ إن مصدر هذه الحمية نتيجة الجاهلية التي يعيشونها، وهو هو الجهل الذي اصطنعوه لأنفسهم، وجعلوه في قلوبهم، فمنعهم عن الحق. وقد أفادت دلالة ﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ أفادت بيان واقعهم من الجهل، مع إصرارهم على عدم العدول عنه إلى الحق، وبالتالي استحق هؤلاء الكفرة عذابنا حين جعلوا في قلوبهم الحمية الجاهلية، فقدموها على اتباع الحق. فهي منافية ومتعارضة ومتضادة مع أخلاق الإسلام وعقيدته ومنهجه. لأنها المانعة من التواضع للحق وقبوله.

فهو تحليل عميق في كشف أصل نبتة الحمية في النفوس، بأنه مخترع من ذواتهم، فجعلهم يعيشون حالة من الكبر، والازدراء لغيرهم، حتى أدى بهم إلى رفض الحق الواضح بحججه وأدلته نتيجة الوهم والغرور. مما يبين أن هذه الحمية تجعل الإنسان يتصور نفسه على غير الحقيقة. ثم ينسج على هذا التصور الخادع الكثير من أنواع الاستعلاء والترفع على الغير، وعلى قبول الحق، لأنه يرى صاحب الحمية أنه أعلى وأكبر من الحق. فقد رأوا في أنفسهم أنهم أكبر من أن يقبلوا الحق من رسولهم صلى الله عليه وسلم، وأكبر من أن يأذنوا ويُمَكِّنُوا المسلمين من عمرتهم، وأن ينحروا الهدي في محله لأهله، وهم المستفيدون من ذلك. مما يفيد أن من يجد في قلبه حمية جاهلية، فإن فيه قدر من الجهل وأخلاق الجاهلية، بمقدار ما يجد في نفسه. فيتطلب الأمر أن يعالج نفسه، ويطوعها للحق، ويربي فيها التواضع.

ثم ينتقل البيان الكريم من الله العزيز الحكيم إلى تأكيد عظيم امتنانه على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بما أنزل عليهم من السكينة، والتزام مقتضيات التقوى ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾ فبفضل الله تبارك وتعالى أنه أنزل السكينة على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين معه، فقال جَلَّ جلاله ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فهو الذي امتن بإنزال السكينة من الطمأنينة والهدوء على رسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى المؤمنين معه. وهي المرة الثالثة التي يذكرها سبحانه وتعالى في هذه السورة العظيمة المباركة، ليظهر عظيم امتنانه ورحمته، وعظيم أثرها، وعظيم عنايته برسوله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين. ليفيد عظيم نعمة السكينة إذا أنزلها الله تعالى على القلب، فإنها القوة على مواجهة الشدائد. وأن إنزالها إنما يكون منه تبارك وتعالى، بل ورد منحها وإعطاؤها بصيغة فعل الإنزال ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ

سَكِينَتَهُۥ﴾ ليدل على أنها من الله تعالى، وأنها تأتي من العلو، لعلو مقامها. وأن مَنْ أنعم اللهُ تعالى عليه بالسكينة فقد منحه تبارك وتعالى نعمة عظيمة من راحة البال وطمأنينة النفس، أمام ما يوجه من الصعاب التي تثير وتجلب القلق والخوف والهلع، وكثرة التفكير الذي ينقل صاحبه من الهدوء والطمأنينة إلى القلق، والتعب النفسي الذي يؤرق عليه حياته ويبدد وقته في التفكير وفي المخاوف. مما يبين عظيم محبة الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. كما يدل هذا البيان على أن الإيمان وسيلة لجلب مِنحَة السكينة من الله تعالى. فقد سماهم تبارك وتعالى بالمؤمنين. تزكية لهم، وتصديقاً لهم على إيمانهم رضي الله عنهم. اللهم إنا نسألك السكينة ولزوم كلمة التقوى بمنك وفضلك يا رب العالمين.

ثم ذكر تبارك وتعالى أن من كمال إنعامه على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين أن منحهم كلمة التقوى، تصديقاً وعملاً بها. فقال عَزَّ وجل ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ فأنعم على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بأن جعلهم ملتزمين بكلمة التقوى التي جعلتهم يتخلقون ويتعاملون بموجبها، حتى أنهم أطلقوا من أسروهم من المشركين الذين ترصدوا برسوله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين يوم الحديبية. كما سبق بيانه. فكانوا يتقون الله تعالى في تصرفاتهم، ويراعون قدسية المكان، وما هم عليه من نسك الإحرام.

وقد أفادت جملة ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أن أصلها كلمة منطوقة، وهي: لا إله إلا الله. ولكن في دلالتها ما يتحقق به الاستقامة وتحصيل الخير، لأنها تجمع بين الخوف والرجاء. الخوف من مخالفة الله تعالى، مع رجاء ما عنده من الرحمة. فالتقوى إيمان وصدق وعمل بها. ولذلك ورد عن الصحابة رضي الله عنهم أن التقوى هي قول: لا إله إلا الله. فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنها: لا إله إلا الله. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: شهادة أن لا إله إلا الله، فهي كلمة التقوى. يقول: فهي رأس التقوى[1] فتقريرها يكون قولاً باللسان، واعتقادا بالجنان، وعملاً بأركان الإسلام. فهي الكلمة التي يتحقق بها تقوى الله سبحانه وتعالى، بأن يخاف ربه ويرجوه، لأنه يعلم أنه لا إله غيره، فهو الذي يحاسبه ويجازيه على معصيته وعلى طاعته، وأنه يراه ويكتب كل ما يكون منه، وأنه المعطي والمعين والرزاق، وأنه يحب من قام بها حق القيام، وبكمال الامتثال، وأنها: اعتقاد، وقول، وعمل بموجباتها من الطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يشيد سبحانه وتعالى بالمسلمين من حيث استحقاقهم لما أنعم عليهم من السكينة، ومن إلزامهم كلمة التقوى، فقال تبارك وتعالى ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ فكان الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم. أي: مما سواهم من أهل الكفر، لأنهم أخذوا بكلمة التقوى اعتقاداً وقولاً وعملاً، بل

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٣١٠-٣١١)

ونعتهم بأنهم أهلها ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ فهم أهلها، القائمون بها والمستحقين لها، وليس غيرهم. وفي هذا حصر بأنها للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين القائمين عليها، وهذه شهادة وتزكية عظيمة من الله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بأنهم أهل كلمة لا إله إلا الله، القائمين عليها. وبالتالي فإن كل من أخذ بها اعتقاداً وقولاً وعملاً كان من أهلها، فاللهم اجعلنا من أهلها بفضلك وتوفيقك يا رب العالمين.

ثم يُظهر ويبين عَزَّ وجل عظيم سلطانه وكمال علمه بكل شيء في الكون، ومنه ما أخبر به عما في قلوب المشركين، وعما في قلوب المؤمنين. فيقول جَلَّ جلاله ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ فإن الله قد أحاط علمه بكل شيء، ومن ذلك ما بينه لكم عما في نفوسكم من الإيمان والتقوى، وما تحقق لكم من السكينة، وما أنتم عليه مع كلمة التقوى. وكذلك بما عليه المشركون من حمية الجاهلية التي يحملونها في قلوبهم، وهو الذي يعلم أين يجعل رسالته، ومن هم الذين يخصهم بمعيته وسكينته، ويجعلهم أهلاً لكلمة التوحيد. ويعلم من هو الذي يصلح لها من العباد. مما يفيد أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الأصلح والأجدر برسالته، وأن أصحابه رضي الله عنهم هم أهل لما هم عليه من الإيمان. فليس هناك أفضل منه صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه، ولا أجدر منهم بهذه المنزلة العظيمة.

وقد استفتح البيان عن كمال علمه جَلَّ شأنه بحرف ﴿ وَكَانَ ﴾ التي أعطت الاستباق للعلم، فليس علمه تلك اللحظة، بل إنه علم قديم ومستمر غير منقطع، ليعطي معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة التي لا تنقطع، لا سابقاً ولا لاحقاً. فإني أعلم كل شيء، حتى ما يضمره العباد في قلوبهم، وما هم عليه من أمر وشأن. مما يفيد الرقابة الربانية للعباد أجمعين، كما أنها وردت على سبيل التخصيص ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أي: حصر هذه الصفة الكريمة له وحده لا شريك له. فكان الله منذ الأزل وليس لغيره ذلك. وفي التخصيص زيادة عناية وتطمين للمؤمنين، وإظهار الامتنان مع كمال القدرة والرعاية الكريمة لكم. وورد بالصيغة الكلية لكل شيء، بما يفيد أعلم ما تعملون جميعاً أيها الْمُخَاطَبُون، وما يكون لكم من أعدائكم من مكر وخديعة، فكونوا في طمأنينة من مكرهم، وأخلصوا لربكم تبارك وتعالى.

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا

سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾

ثم ينتقل البيان الكريم إلى إثبات صحة رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم التي رآها في المنام وهو بالمدينة، بأنه يدخل مكة وأصحابه، ويطوفون بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك. فلما ساروا إلى مكة عام الحديبية، اعتقدوا أن هذه الرؤيا تتحقق هذا العام، فلما رجعوا من غير دخولهم المسجد الحرام، وما حدث من الصلح الذي صار مع المشركين، بأن يعودوا العام القادم بناء على بنود ما تصالحوا عليه. أي: بناء على الصلح الذي حدث مع المشركين، فقد تحدث بعض الصحابة رضي الله عنهم في شأن الرؤيا، وتساءلوا عن ذلك. وكان تساؤل استفسار ومعرفة. كما ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: أنه وقع في نفس الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء. حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك[1] وبالتالي كان سؤالهم على سبيل الفهم والعلم عن المفارقة. حتى يزدادوا علماً ومعرفة بهذا الشأن، وعلة عدم تحقق الرؤيا.

فقال تعالى مبيناً وموضحاً لعباده صحة الرؤيا وتحققها، وما سيكون من الأحداث قبل أن يكون تحققها، وبشيء من التفصيل، فقال جلَّ ذكره ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ لقد صدقت رؤية رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به من دخول المسجد الحرام معتمرين ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾ فورد البيان من الله تعالى بحرف التحقيق المتصدر بلام القسم ﴿ لَّقَدْ ﴾ لغرس اليقين بصدق الرؤيا، وأنها رؤيا حق، وإزالة اللبس عن الرؤيا ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا ﴾ فهذا تصديق واعتماد من الله تعالى لصحة وصدق رؤية رسوله صلى الله عليه وسلم، مؤكداً لصحتها بما أضافه عزَّ وجل من أنها ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ الذي ينفي الباطل والشك، ويقرها كما هي، بأنها رؤية صادقة صحيحة، وكائنة كما رآها عليه الصلاة والسلام، فإن الله تعالى هو الذي أراها رسوله عليه الصلاة والسلام، وما سيؤول إليه الأمر من الطواف بالبيت الحرام. لأن رؤيا الأنبياء حق، ومتحققة بالحق كما رأى عليه الصلاة والسلام.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢١٥)

وبعد إثبات الله سبحانه وتعالى صدق ما أخبر به رسوله عما رآه بأنه حق، يؤكد عَزَّ وجل ذلك، بقوله تبارك وتعالى ﴿ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ليتحقق لكم دخول المسجد الحرام بمشيئة الله تعالى. ومن دقائق البيان الكريم أن ورد دخولهم بتوثيقه بمشيئته عَزَّ وجل ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ لإثبات أن كل أمر هو بمشيئته تبارك وتعالى، ولتعليم الأمة ربط أمورهم بمشيئة ربهم وإرادته عَزَّ وجل. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه[١] وأما كونه من جهة الله تعالى فهو يفيد تأكيد الوقوع والجزم به. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء[٢] فدخولهم حق، قد قطع الله تعالى به.

ثم أخبر تبارك وتعالى بهيئتهم التي سيكونون عليها عند دخول المسجد الحرام، فقال عَزَّ وجل عن الحالة والهية الأولى ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ أي في أمن من عدوكم، فلن يكون منه ما يجعله يخيفكم، وبالتالي تكونون في طمأنينة وأمان. وأما الحال الآخر فهو عند ختام نسك العمرة ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ بعضكم سيحلق شعر رأسه، وبعضكم سوف يقصر شعر رأسه. مما يفيد ويدل على تساوي الأمرين، فكلاهما مجزئ. والحالة الثالثة: أنكم ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ تأكيد للأمن في البداية، مع نفي الخوف عند التمام والانتهاء. وقد كانت عمرة القضاء هذه في شهر ذي القعدة، سنة سبع للهجرة.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بكمال علمه، وجهل عباده إلا بما يخبرهم ويُنبئهم ويعلمهم به، فقال تبارك وتعالى ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ ﴾ فعلم ربكم ما لم يحصل لكم به علم. فقد علم ربكم أن في الصلح خير، بحفظ دماء من لا تعلمون من المؤمنين بمكة، وعلم أن في عودتكم خير، وعلم أن رؤيا رسولكم حق، وأنها تتحقق كما أخبر. فكان هذا لإعلام من الله تعالى قبل أخذهم عمرة القضاء، بل كان الإخبار لهم بذلك وهم في عودتهم من صلح الحديبية، ليكون آية إعجاز بأن هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا وحي من الله ربكم عَزَّ في علاه، وهذا هو دين الله الحق. ليزداد المؤمن إيماناً، وليكون آية لغيرهم بالدخول في دين الله تعالى. لِمَا فيه من الإخبار عن المستقبل، فيكون فعلاً كما أخبر به سبحانه وتعالى.

ثم يخبر جَلَّ شأنه بأن هناك فتح قبل ما سيكون من عمرة القضاء ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ﴾ فإن الله تعالى قد جعل قبل دخولكم مكة للعمرة العام القادم فتحاً مبينا، سيكون هناك فتح

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥/٥٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢١٥)

عظيم، وهو فتح خيبر، حيث كانت في شهر صفر، بعد أن رجع من الحديبة صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة، فأقام بالمدينة صلى الله عليه وسلم شهري: ذي الحجة، وشهر الله المحرم، وخرج في شهر صفر إلى خيبر، وتم الفتح. ففعلاً كان ﴿ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ فأخبرهم بما سيكون قبل أن يكون. ليكون ذلك آية إعجاز بأن هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا وحي من الله ربكم، وهذا هو دين الله الحق. ليزداد المؤمن إيماناً، وليكون آية لغيرهم في الدخول في دين الله تعالى.

ثم يبين الله تعالى مضمون رسالة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومستقبل هذه الرسالة وهذا الدين، ليكون هذا الحكم من الله سبحانه وتعالى آية من آياته الغيبية الباهرة، التي كشفت وتكشف مستقبل هذا الدين، ومسيرته التي يشهد لها ما مضى، وواقعها، وما هو قادم بإذن الله تعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾ فهو الذي أرسل رسوله محمد صلى الله عليه وسلم برسالته. ومن دقائق السياق حصر الإرسال باسم الإشارة ﴿ هُوَ ﴾ مع اسم الموصول ﴿ ٱلَّذِيٓ ﴾ فهو سبحانه وتعالى الذي اختار واصطفى وأرسل وكلف رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة للعالمين. لبيان العناية، والإظهار والحفاوة بالرسول صلى الله عليه وسلم، وبما كلفه به.

وقد سماها الله تعالى ﴿ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ تنويهاً وبياناً لشأن هذا الدين وفضله ومنزلته، ومنهجه الذي حوى كل ما يهدي الإنسان للخير والفلاح في الدنيا والنجاة من النار والفوز بالجنان في الآخرة، فهو دين التوحيد والقرآن الكريم الموضح والمبين لفرائض الله تعالى، وما تنصلح به الأمة في عقيدتها وعبادتها وأخلاقها الاجتماعية والأسرية وغيرها من مناحي الحياة، بل شملت حتى العلاقة مع البهائم والدواب والجمادات، والظلال، والمياه الجارية والراكدة. وأن هذا الدين هو الدين الحق، وغيره باطل، فلا يقبله الله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ فقد سماه تبارك وتعلى ﴿ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ ليفيد أن من ابتغى الهدى في غيره فقد جانب الحق، وحاد وضل عنه. وكذلك سماه سبحانه وتعالى بدين الحق ﴿ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ فهو الدين الحق، وبالتالي فإن من ابتغى الحق في غيره فقد حاد عن الدين الصواب الذي يرضاه الله تعالى لعباده.

وبعد أن أوضح سبحانه وتعالى حقيقة هذا الدين يخبر عَزَّ وجل بمستقبله ﴿ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ فإن الله جَلَّ شأنه ناصر هذا الدين ومُظهره على جميع الأديان، فهو الأظهر والأبرز. وفي هذا تنويه

بياني يثبت ويؤكد مكانة هذا الدين، وارتفاعه وعلوه، وظهوره على جميع الأديان منذ بعثة نبيه صلى الله عليه وسلم وهو يعلو ويظهر على جميع الأديان ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ بما يفيد أن الله تعالى ناصر لهذا الدين ومُظهره ومُكثِّر الداخلين فيه، ومقويه ليكون غالباً بائناً ظاهراً على كل دين. وهو الواقع المشاهد عبر العصور إلى تاريخنا وإلى أن يرث اللهُ عَزَّ وجل الأرض ومن عليها. وبالتالي فإن هذا النصر والظهور كائن ولو كره الأعداء، وأولهم المشركون الذي حاربوه عند أول ظهوره بينهم. فقد أظهر الله تعالى هذا الدين مع كراهية المشركين لظهوره بمكة، ومقاومتهم له. مما يفيد أن دين الله عَزَّ وجل هو دين الإسلام، وأنه ظاهر على غيره إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وأن في إدراك المسلم لذلك ما يستوجب عليه أولاً: عدم الخوف على هذا الدين. وثانياً: أن يفهم منهجه الدعوي فهماً صحيحاً، وأن يعمل بأخلاقه وهديه. وثالثاً: أن يسهم في نشره على نهجه وهديه، ولا يُنَفِّر الناسَ عنه بمخالفة منهجه وهديه، فإنه نور واضح المعالم. كما أن في هذا الإعلام برهان وآية لكل من أراد الهدى بما يراه من العلو لهذا الدين كما أخبر به سبحانه وتعالى.

ثم يخبر جَلَّ جلاله عن أن شهادته على ما أخبر به كافية وافية، فلا يحتاج الأمر شهادة من غيره عليه.

فقال عَزَّ وجل ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ فتكفي شهادة الله تعالى على ما أخبر وأوضح لكم. فهو سبحانه وتعالى الشاهد على حقيقة ما أخبر عن دينه، بأنه هدى، وأنه الدين الحق، وأنه سَيُظهِرُهُ على الدين كله، وشهيد أيضاً على أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم. وشهادة الله تعالى كافية، وأنه مستغنى عن شهادة كل أحد من خلقه، لأن الأمر له وحده لا شريك له. وبالتالي فمن أراد أن يؤمن فهذه الحقائق والبراهين أمامه وبين يديه، ومن كفر فعليه كفره.

ثم يختم الله تبارك وتعالى سورة الفتح بالإشادة والمدح لرسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، فقال تعالى ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ فبدأ تبارك وتعالى بالتنويه برسوله أولاً صلى الله عليه وسلم ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ فجمع له بين التعيين بالاسم ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ والتعين والتعريف له بالرسالة ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ صلى الله عليه وسلم، ثم عطف على ذلك أصحابه رضي الله عنهم ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ فشملت من معه صلى الله عليه وسلم بالإيمان والتصديق والنصرة والمؤازرة. ثم أوضح تبارك وتعالى قوة إيمان الصحابة رضي الله عنهم، والتي انعكست على قوتهم وشدتهم على أعداء الدين،

فقال تعالى ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ جادون في غلظتهم على الكافرين، وتعني ﴿أَشِدَّآءُ﴾ الصلابة في التعامل معهم، سواء كان الشأن في الحرب أو في غيره مما يُوجب الشدة معهم، فيظهرون الشدة والصلابة لمن خالف دينهم. فإنهم لا يتهاونون، ولا يداهنون في ذلك، بل على وضوح وصفاء.

ولكن بالرغم من هذه الشدة والغلظة من المؤمنين على الكافرين إلا أن تعاملهم فيما بينهم على النقيض من ذلك، فقال سبحانه وتعالى عنهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ متوادُّون ومتعاطفون ومتحابون فيما بينهم. فتظهر بينهم الرأفة والرحمة، والتعاون. وأما في عبادتهم، التي تمثل علاقتهم بربهم فيقول عنهم تبارك وتعالى ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ تشاهد فيهم كثرة العبادة والتي منها العبادة الظاهرة، وهي: الصلاة، بما يفيد كثرة القيام بها، وقد وصف الله سبحانه وتعالى قيامهم وأداءهم للصلاة بأعظم أركانها ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ الركوع والسجود، لما فيهما من الخضوع والتذلل لله سبحانه وتعالى. ثم ذكر تبارك وتعالى الغاية والهدف من هذا الامتثال، فقال جَلَّ شأنه ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ يريدون من الله تعالى وحده لا شريك له فضله ورضاه عنهم، راغبون في ثوابه جَلَّ جلاله. مما ينفي عنهم الرياء والسمعة، ويثبت لهم سبحانه وتعالى الإخلاص له جَلَّ شأنه. ليقدموا للأمة النموذج والمثال العملي والتطبيقي في العبادة، وفي التراحم بينهم، وفي التعامل مع أعداء الدين.

ثم يذكر تبارك وتعالى أثر تلك العبادة على وجوههم، فيقول عَزَّ وجل ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ فعلامة عبادتهم ظاهرة على وجوههم من أثر سجودهم لربهم تبارك وتعالى. وقال العلماء عن دلالة ﴿سِيمَاهُمْ﴾ التي هي العلامة: أنها النور يوم القيامة. وقيل: سيما الإسلام وسمته وخشوعه، وعُني بذلك: أنه يُرى عليهم ذلك في الدنيا. وقيل: ما يظهر من أثر السهر والتعب في الوجه[1] وقال ابن عباس رضي الله عنهما: السمت الحسن، وقال في رواية مجاهد: أما إنه ليس بالذي ترون، ولكنه سيما الإسلام وسمته وخشوعه. وكذلك قال مجاهد: ليس بندب التراب في الوجه، ولكنه الخشوع والوقار والتواضع[2] الذي يظهر على الوجه. وهذا يبين قوة حفاظهم على الفرائض، وكثرة صلاتهم من غير الفرائض رضي الله عنهم، كما يفيد ذلك أن الصلاة نور للعبد في الدنيا وفي الآخرة. وأن ذلك يظهر على سمتهم وأخلاقهم وتصرفاتهم، كما قال تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٣٢١-٣٢٧)

(2) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/١٧٣)

﴿ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥﴾ فإذا نهت الصلاة عن الفحشاء والمنكر، أتى صاحبها بمكارم الأخلاق، فظهر ذلك على سمته في بشاشته، وضياء وجهه من الوقار والخشوع، وبهاء الوجه.

ثم يذكر تبارك وتعالى أن تلك الصفات لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم مذكورة في كتاب التوراة وكتاب الإنجيل. فقال تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما تقدم من هذه الصفات الحميدة الجليلة ﴿مَثَلُهُمۡ﴾ أي: وصفهم الذي وُصِفُوا به ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ في كتاب التوراة الذي أنزله الله تبارك وتعالى على رسوله موسى عليه السلام. ثم كرر سبحانه لفظ المثل ﴿وَمَثَلُهُمۡ﴾ للتنبيه على تأكيد تقريره بالإثبات بأنه كذلك في الإنجيل ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ﴾ الذي أنزله الله تعالى على رسوله عيسى ابن مريم عليه السلام. وكونه مضروب به المثل أعطى ذلك الإفادة بعظمة وجلال ما كانوا عليه من تلك المحامد من الصفات الجليلة العظيمة.

ثم أظهر الله تعالى وصفهم وبينه، بأنهم ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ فإن صفات أحوالهم شبيهة بالزرع الذي أخرج جانبه من الفروع ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: فساندت وأعانت الفروع أصولها التي قامت عليها، فجعلت أصولها قوية ثابتة، فهذه الزيادة من فروع الزرع قد زادت من قوة الأصل التي قامت عليه، فهناك تغذية بالتقوية والمساندة من هذه الفروع. فكذلك الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وكذلك يشمل المثل الصلاة والامتثال لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وأثر ذلك على القائم بطاعة الله تعالى، وكذلك على القائم بالصلاة وفروعها من النوافل والرواتب. فمعناه كلما كثرة الفروع ظهرت القوة على الأصل بالمساندة والتقوية.

ثم تنتقل قوة الزرع إلى مرحلة أقوى، وهي ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ فانتقل من الرقة إلى الغلظة من المتانة والقوة، فلا تؤثر فيه الرياح، ولا الحشرات، ولا المؤثرات، وكذلك كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يزدادون في حياتهم من القوة في الطاعة والامتثال، وفي الظهور بالدين على غيره من الأديان. وكذلك أيضاً يكون المصلي قوياً بصلاته في إرادته، وفي ثبوته أمام المغريات على تنوعها، فلا تجعله يتأثر بها، لصلابته وقوته بما منحه الله تعالى من أثر الصلاة. بما يبين أن الصلاة قوة للمصلي في كل خير، وأنها مانعة له عن كل شر، فَتُكسبهُ من المحامد والقوة والجسارة على الطاعة وعلى تطويع النفس لها بحسب ما لديه من الصلاة. كما يبين أن الصحابة رضي الله عنهم هم النموذج والقدوة للشخصية المؤمنة، فاقتدوا بهم في طاعتهم وصلاتهم، وامتثالهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

وبالتالي تكون النتيجة هي الاستواء ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ فاستوى على أعواده وسيقانه بقوته، وبنظارته، وفي اخضراره، وعلوه وارتفاعه. وكذلك الصحابة كانوا كذلك، وبمثله المصلي فإنه يستوى في نظارته وسمته وسماته الظاهرة عليه من بين غيره من الناس ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ فيعجب هذا الزرع زارعه، وكذلك يُعجِب المهتمين بالزراعة. وبمثل ذلك كان الصحابة رضي الله عنهم، حيث اهتموا بعبادتهم وصلاتهم، وطاعة ربهم ورسولهم صلى الله عليه وسلم، فيُرى أثر صلاتهم وكمال طاعتهم عليهم، لبعدهم عن الفواحش والمنكرات، وحبهم للطاعة والخير، ولمحامد الأخلاق ومكارمها، ومحبتهم لبعضهم البعض. وبالتالي فإن كل من سلك مسلكهم وحافظ على صلاته وطاعته لربه ظهر ذلك الخير على محياه وعلى أعماله وأخلاقه، فأحبه الناس لما هو عليه من السمة والخير، كما أحب أهل الزراعة تلك الزروع الشامخة النظرة.

ثم يخبر عَزَّ وجل عن أثر هذا على أعداء الدين فيقول سبحانه وتعالى ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ فهذه القوة من الطاعة والعبادة، وما يلتحق بها من المكارم، ومن البعد عن السيئات يُحدث في قلوب الكفرة الحنق والانزعاج، فيكون غيظاً يغتاظون به، فقال تعالى ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ ليغيظ بهذا الظهور والبروز أهل الكفر، لأنهم يريدون الانحلال، والتفسخ، ولا يريدون للإسلام والمسلمين علواً وصلاحاً. فيغيظهم ما هم عليه من الحق ومن المكارم، والنهج القويم. مما يفيد أن علو هذا الدين يغيظ أهل الكفر، فكلما ارتفع شأنه ازدادوا غيظاً وحنقاً وكمداً.

فتلك هي صفات الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم. فحازوا التزكية من ربهم سبحانه وتعالى، وحازوا على الوصف والثناء الجميل، بما يفيد أن على غيرهم أن يقتدوا ويهتدوا بسيرة الصحابة رضي الله عنهم التي زكاها ووصفها ربكم لكم، وامتدحها وأثنى عليها، وأشار إليها في القرآن العظيم، كما أشار إليها في كتابه التوراة، وكتابه الإنجيل، فأشار لها بهذا المثل الذي يُظهر حقيقة شأنهم بأحسن الأمثال، وهو الزرع الذي لا يكون منه إلا الخير في عطائه ومنظره إن نظرت إليه، وفي تآلفه مع بعضه البعض. فكذلك كان الصحابة رضي الله عنهم في ذلك التشابه، فإنهم في تآلف كما هو تآلف أغصان الزروع، وتتداخل بعضها في بعض. وأنهم مشابهون للزروع في قوة جذورها وسيقانها وفروعها، ونفعها وظلالها على غيرها. فعليكم أيها الناس بهذا النموذج في كل شأن، فإنهم أهل المنهج العملي التطبيقي لدين ربهم سبحانه وتعالى.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى الإخبار عن وعده العظيم سبحانه وتعالى لعباده الذين آمنوا وجمعوا مع الإيمان الطاعة، بإقامة شرائع الدين. فقال عَزَّ وجل ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ فإن ربكم وعَدَ كُلَّ مَن جمع بين الإيمان والعمل بدينه أن يغفر له، وأن يرزقه الجنة في الآخرة

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ﴾ ووعده حق جَلَّ في علاه ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: الذين حققوا الإيمان، والذي هو الأساس والقاعدة الأولى، لما تضمنه من الإقرار بالله تعالى وحده لا شريك له رباً ومعبوداً، وصَدَّق بجميع المرسلين وبالملائكة والكتب واليوم الآخر، وجميع مقتضيات الإيمان. ثم جمع مع هذا الإيمان العمل بالصالحات، والتي تمثل القاعدة الثانية: فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ والتي هي: أعمال الدين. أي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، من العبادات، والمعاملات، والأحكام، وجميع شرعه. لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي بذلك صفة الصلاح جميع دينه سبحانه وتعالى، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع في الدنيا وفي الآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها، فثلاث كلمات ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم ﴾ حوت منهج الله تعالى بكامله. وأفادت وقررت التلازم والتعاضد بين الإيمان والعمل بالصالحات.

فهؤلاء الذين جمعوا بين الإيمان بالتصديق بجميع ما جاء عن الله تعالى وبين العمل بدينه سبحانه وتعالى فإن حالهم في الآخرة هو ﴿ مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ فلهم من ربهم مغفرة الذنوب، وسترها، وتكفيرها بإزالة ما يترتب عليها يوم القيامة من الحساب والجزاء، وكذلك لهم الثواب العظيم، فهو ثواب قد بلغ الغاية في عظمته وكثرته، ونوعه، وهو دخولهم الجنة برحمته سبحانه وتعالى. وهو بلا شك أعظم المكاسب، بل أعظم ما يحصل عليه العبد، وهو دخوله الجنة، ومغفرة ذنوبه، فلا يُعَاقب عليها. اللهم نسألك الجنة بغير حساب ولا عذاب، بفضلك ورحمتك وتوفيقك وهدايتك، والمسلمين أجمعين.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الفتح. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.